١٦

صفوة التفاسير

القسم السادس عشر

تفسير السور الكريمة

الأحقاف - محمد - الفتح - الحجرات - ق

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم

بيروت

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم السادس عشر

تفسير السور الكريمة
الأحقاف - محمد - الفتح - الحجرات - ق

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبع على نفقة المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ، العمارية ، الرياض



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* هذه السورة مكية وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، العقيدة في أصولها الكبرى « الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » ومحور السورة الكريمة يدور حول « الرسالة والرسول » لإثبات صحة رسالة محمد ﷺ وصدق القرآن .

* تحدثت السورة في البدء عن القرآن العظيم المنزل من عند الله بالحق ، ثم تناولت الأوثان التي عبدها المشركون وزعموا أنها آلهة مع الله تشفع لهم عنده ، فبيَّنت ضلالهم وخطأهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع ، ثم تحدثت عن شبهة المشركين حول القرآن ، فردَّت على ذلك بالحجة الدامغة ، والبرهان الناصع .

* ثم تناولت نموذجين من نماذج البشرية في هدايتها وضلالها ، فذكرت نموذج الولد الصالح ، المستقيم في فطرته ، البارّ بوالديه ، الذي كلما زادت سنه وتقدم في العمر ازداد تُقىً وصلاحاً وإحساناً لوالديه . . ونموذج الولد الشقي ، المنحرف عن الفطرة ، العاقّ لوالديه ، الذي يهزأ ويسخر من الإيمان والبعث والنشور ومآل كل منهما .

* ثم تحدثت السورة عن قصة « هود » عليه السلام مع قومه الطاغين « عاد » الذين طغوا في البلاد واغتروا بما كانوا عليه من القوة والجبروت ، وما كان من نتيجتهم حيث أهلكهم الله بالريح العقيم ، تحذيراً لكفار قريش في طغيانهم واستكبارهم على أوامر الله وتكذيبهم للرسول ﷺ .

* وختمت السورة الكريمة بقصة النفر من الجنّ الذين استمعوا إلى القرآن وآمنوا به ثم رجعوا منذرين إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان ، تذكيراً للمعاندين من الإنس بسبق الجن لهم إلى الإسلام .

التسمية : سميت « سورة الأحقاف » لأنها مساكن عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم وجبروتهم ، وكانت مساكنهم بالأحقاف من أرض اليمن ﴿واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف . . ﴾ الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾

اللغــة : ﴿شِرْكٌ﴾ شركة ونصيب ﴿أثارة﴾ بقية من الشيء ﴿تُفيضون﴾ الإفاضة في الشيء : الخوضُ فيه والاندفاع يقال : أفاضوا في الحديث اندفعوا فيه ، وأفاض الناس من عرفات أي دفعوا منها ﴿بِدعاً﴾ البدع بالكسر الشيء المبتدع قال الرازي : والبِدعُ والبديع من كل شيء المبـدع ، والبدعـة ما اخترع مما لم يكن موجوداً قبله بحكم السُّنَّـة[1] ﴿إفـك﴾ كذب ﴿كُرهاً﴾ بكرهٍ ومشقة ﴿فصاله﴾ فطامه ﴿أوزعني﴾ ألهمني ﴿أفٍ﴾ كلمة تضجّر وتبرم ﴿خلت﴾ مضت .

التفسيـر : ﴿حـمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجـاز القـرآن وأنـه منظـوم من أمثـال هذه الحروف الهجائية[2] ﴿تنزيـلُ الكتابِ مـن اللّهِ العزيـزِ الحكيـمِ﴾ أي هذا الكتاب المجيد منزَّل من عند الإله العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ﴿ما خلقْنـا السَّمٰواتِ والأرضَ ومـا بينْهُمـا إلا بالحـقِّ﴾ أي ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات عبثاً ، وإنما خلقناهما خلقاً متلبساً بالحكمة ، لندل على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ﴿وأجـلٍ مُسـمَّى﴾ أي وإلى زمنٍ معيَّـن هو زمن فنائهما يوم القيامة ﴿يـوم تبدَّل الأرضُ غير الأرضِ والسمواتُ وبرزوا للهِ الواحـد القهار﴾ ﴿والذيـن كفـروا عمَّـا أُنْذِروا مُعْرِضـون﴾ أي وهؤلاء الكفار معرضون عما خُوِّفوه من العذاب ومن أهوال الآخرة،لا يتفكرون فيه ولا يستعدون له . . ثم لما بيَّـن وجود الإله العزيز الحكيم ردَّ على عبدة الأصنام فقال ﴿قـل أرأيتـم مـا تدعون مـن دون الله﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : أخبروني عن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ، وتزعمون أنها آلهة ﴿أروني ماذا خلقـوا مـن الأرض﴾ ؟ أي أرشدوني وأخبروني أيَّ شيءٍ خلقوا من أجزاء الأرض ، وممَّا على سطحها من إنسانٍ أو حيوان ؟ ﴿أمْ لهـم شركٌ فـي السَّمٰواتِ﴾ ؟ أي أمْ لهم مشاركة ونصيب مع الله في خلق السمواتِ ؟ ﴿ائتونـي بكتـابٍ مـن قبـل هذا﴾ أي هاتوا كتاباً من الكتب المنزلة من عند الله قبل هذا القرآن يأمركم بعبادة هذه الأصنام ؟ وهو أمر تعجيز لأنهم ليس لهم كتابٌ يدل على الإشراك بالله ، بل الكتب كلُّها ناطقة بالتوحيد ﴿أوْ أثارة مـِنْ علـمٍ﴾ أي أو بقية من علمٍ من علوم الأولين شاهدة بذلك ﴿إن كنتـم صادقيـن﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم أنها شركاء مع الله قال في البحر : طلب منهم أن يأتوا بكتابٍ واحدٍ يشهد بصحة ما هم عليه من عبادة غير الله ، أو بقيةٍ من علوم الأولين ، والغـرضُ

(١) التفسير الكبير ٧/٢٨ (٢) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾

توبيخهم لأن كل كتب الله المنزَّلة ناطقة بالتوحيد وإبطال الشرك ، فليس لهم مستند من نقل أو عقل[١] . . ثم أخبر تعالى عن ضلال المشركين فقال ﴿ومنْ أضلُّ ممَّن يدعُوا منْ دُون اللهِ من لا يسْتجيبُ لهُ إلى يوم القيامة﴾ ؟ أي لا أحد أضلُّ وأجهل ممن يعبد أصناماً لا تسمع دعاء الداعين ، ولا تعلم حاجاتِ المحتاجين ، ولا تستجيب لمن ناداها أبداً لأنها جمادات لا تسمع ولا تعقل ﴿وهم عنْ دعائهم غافلون﴾ أي وهم لا يسمعون ولا يفهمون دعاء العابدين ، وفيه تهكم بها وبعبدتها ، وإنما ذكر الأصنام بضمير العقلاء ، لأنهم لما عبدوها ونزَّلوها منزلة من يضر وينفع ، صحَّ أن توصف بعدم الاستجابة وبعدم السمع والنفع ، مجاراة لزعم الكفار ﴿وإذا حُشر الناسُ كانوا لهم أعداءً﴾ أي وإذا جمع الناس للحساب يوم القيامة كانت الأصنام أعداءً لعابديها يضرونهم ولا ينفعونهم ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ أي وتتبرأ الأصنام من الذين عبدوها قال المفسرون : إن الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة فتتبرأ من عابديها وتقول ﴿تبرأنا إليكَ ما كانوا إيَّانا يعبدون﴾ وهذه الآية كقوله تعالى ﴿كلاً سيكفُرون بعبادتهم ويكونُونَ عليهم ضِداً﴾ واللهُ على كل شيء قدير[٢] ﴿وإذا تُتْلى عليهم آياتنا بيِّنات﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن واضحات ظاهرات أنها من كلام الله ﴿قال الذين كفروا للحقِّ لما جاءهم﴾ أي قال الكافرون عن القرآن الحق لما جاءهم من عند الله ﴿هذا سحرٌ مبين﴾ أي هذا سحرٌ لا شبهة فيه ظاهر كونه سحراً ، وإنما وضع الظاهر ﴿الذين كفروا﴾ موضع الضمير تسجيلاً عليهم بكمال الكفر والضلالة قال في البحر : وفي قوله ﴿لما جاءهم﴾ تنبيهٌ على أنهم لم يتأملوا ما يُتلى عليهم ، بل بادروا أول سماعه إلى نسبته إلى السحر عناداً وظلماً ، ووصفوه بأنه ﴿مبينٌ﴾ أي ظاهر أنه سحر لا شبهة فيه[٣] ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي أيقولون اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من تلقاء نفسه ؟ وهو إنكار توبيخي ﴿قلْ إن افتريتُه فلا تملكونَ لي من الله شيئاً﴾ أي قل إن افتريتُه ـ على سبيل الفرض ـ فالله حسبي في ذلك وهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه ، ولا تقدرون أنتم على أن تردُّوا عني عذاب الله ، فكيف أفتريه من أجلكم وأتعرض لعقابه ؟ ﴿هو أعلمُ بما تُفيضون فيه﴾ أي هو جل وعلا أعلمُ بما تخوضون في القرآن وتقدحون به من قولكم هو شعر ، هو سحر ، هو افتراء ، وغير ذلك من وجوه الطعن ﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ أي كفى أن يكون تعالى شاهداً بيني وبينكم ، يشهد لي بالصدق والتبليغ ، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي وهو الغفور لمن تاب ، الرحيم بعباده المؤمنين قال أبو حيان : وفيه

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٥ . (٢) انظر التفسير الكبير ٢٨/ ٦ . (٣) البحر المحيط ٨/ ٥٦ .

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١)﴾

وعدٌ لهم بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر ، وإشعارٌ بحلمه تعالى عليهم إذْ لم يعاجلهم بالعقوبة[١] ﴿قلْ ما كنتُ بِدعاً من الرُسل﴾ أي لست أول رسول طرق العالم ، ولا جئت بأمرٍ لم يجيء به أحدٌ قبلي ، بل جئت بما جاء به ناسٌ كثيرون قبلي ، فلأيِّ شيءٍ تنكرون ذلك عليَّ ؟ والبدْعُ والبديعُ من الأشياء هو الذي لم يُر مثله قال ابن كثير : أي ما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم ، فقد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم ﴿وما أدْري ما يُفعل بي ولا بكم﴾ أي ولا أدري بما يقضي اللهُ عليَّ وعليكم ، فإن قدر الله مغيَّب ﴿إن أتّبع إلا ما يُوحى إليَّ﴾ أي لا أتبع إلا ما ينزله اللهُ عليَّ من الوحي ، ولا أبتدع شيئاً من عندي ﴿وما أنا إلا نذيرٌ مبين﴾ أي وما أنا إلا رسولٌ منذرٌ لكم من عذاب الله ، بيّن الإنذار بالشواهد الظاهرة ، والمعجزات الباهرة ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به﴾ أي قل يا محمد : أخبروني يا معشر المشركين إن كان هذا القرآن كلام الله حقاً وقد كذبتم به وجحدتموه وجوابه محذوف تقديره : كيف يكون حالكم ؟ ﴿وشهد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثله فآمنَ واستكبرتم﴾ أي وقد شهد رجل من علماء بني إسرائيل على صدق القرآن ، فآمن به واستكبرتم أنتم عن الإيمان ، كيف يكون حالكم ، ألستم أضل الناس وأظلم الناس ؟ قال الزمخشري : وجوابُ الشرط محذوف تقديره : إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ؟ ودلَّ على هذا المحذوف قوله تعالى ﴿إنَّ اللهَ لا يَهْدي القوم الظالمين﴾[٢] أي لا يوفق للخير والإيمان من كان فاجراً ظالماً قال المفسرون : والشاهدُ من بني إسرائيل هو « عبد الله بن سلام » وذلك حين قدم رسول الله ﷺ المدينة جاء إليه ابن سلام ليمتحنه ، فلما نظر إلى وجهه علم أنه ليس بوجه كذاب ، وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر ، فقال له : إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنَّ إلا نبي : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أُمه ؟ فلما أجابه ﷺ قال : أشهد أنك رسول الله حقاً[٤] . . الخ ثم ردَّ تعالى على شبهةٍ أُخرى من شبه المشركين فقال ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ أي وقال كفار مكة في حق المؤمنين : لو كان هذا القرآن والدين خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الفقراء الضعفاء ! ! وقال ابن كثير : يعنون « بلالاً » و « عماراً » و « صهيباً » و « خباباً » وأشباههم من المستضعفين والعبيد والإماء ممن أسلم وآمن بالنبي ﷺ[٥] ﴿وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٦ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٦ .
(٣) تفسير الكشاف ٤/ ٢٣٦ . (٤) قصة إسلام عبد الله بن سلام مفصلة في صحيح البخاري . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٨ .

وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ

أي ولمّا لم يهتدوا بالقرآن مع وضوح إعجازه ، قالوا هذا كذبٌ قديم مأثور عن الأقدمين ، أتى به محمد ونسبه إلى الله تعالى **﴿ومِنْ قبلِه كتابُ موسى إماماً ورحمةً﴾** أي ومن قبل القرآن التوراة التي أنزلها الله على موسى قدوةً يؤتم بها في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام ، ورحمة لمن آمن بها وعمل بما فيها **قال الإمام الفخر** : ووجه تعلق الآية بما قبلها أن المشركين طعنوا في صحة القرآن ، وقالوا لو كان خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الضعفاء الصعاليك ، فردَّ الله عليهم بأنكم لا تنازعون أن الله أنزل التوراة على موسى ، وجعل هذا الكتاب ـ التوراة ـ إماماً يقتدى به ، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمحمدﷺ فإذا سلمتم كونها من عند الله ، فاقبلوا حكمها بأن محمداًﷺ رسولٌ حقاً من عند الله[1] **﴿وهذا كتابٌ مصدِّقٌ لساناً عربياً﴾** أي وهذا القرآن كتاب عظيم الشأن ، مصدِّقٌ للكتب قبله بلسانٍ عربي فصيح ، فكيف ينكرونه وهو أفصح بياناً ، وأظهر برهاناً ، وأبلغ إعجازاً من التوراة ؟ **﴿ليُنذِر الذين ظلموا وبُشرى للمُحسنين﴾** أي ليخوِّف كفار مكة الظالمين من عذاب الجحيم ، ويبشر المؤمنين المحسنين بجنات النعيم . . ولما بيَّن تعالى أحوال المشركين المكذبين بالقرآن ، أردفه بذكر أحوال المؤمنين المستقيمين على شريعة الله فقال **﴿إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا﴾** أي جمعوا بين الإيمان والتوحيد والاستقامة على شريعة الله **﴿فلا خوفٌ عليهم﴾** أي فلا يلحقهم مكروهٌ في الآخرة يخافون منه **﴿ولا هم يحزنون﴾** أي ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا في الدنيا **﴿أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها﴾** أي أولئك المؤمنون المستقيمون في دينهم ، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبداً **﴿جزاءً بما كانوا يعملون﴾** أي نالوا ذلك النعيم جزاءً لهم على أعمالهم الصالحة **﴿ووصَّينا الإنسان بوالديه إحْساناً﴾** لـمّا كان رضا الله في رضا الوالدين ، وسخطه في سخطهما حثَّ تعالى العباد عليه والمعنى أمرنا الإنسان أمراً جازماً مؤكداً بالإحسان إلى الوالدين ، ثم بيَّن السبب فقال **﴿حملتْهُ أمُّهُ كُرهاً ووضعتْه كُرهاً﴾** أي حملته بكرهٍ ومشقة ووضعته بكرهٍ ومشقة **﴿وحملُه وفِصالُه ثلاثون شهراً﴾** أي ومدة حمله ورضاعه عامان ونصف ، فهي لا تزال تعاني التعب والمشقة طيلة هذه المدة **قال ابن كثير** : أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً من وحَم ، وغثيان ، وثقل ، وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ، ووضعته بمشقة أيضاً من الطَّلق وشدته ، وقد استدل العلماء بهذه الآية مع التي في لقمان **﴿وفصاله في عامين﴾** على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قويٌ صحيح[2] **﴿حتَّى إذا بلغَ أشُده﴾** أي حتى إذا عاش هذا الطفل وبلغ كمال قوته وعقله **﴿وبلغ أربعين**

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٨/١٢ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣١٩ .

نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾

سنة﴾ أي واستمر في الشباب والقوة حتى بلغ أربعين سنة وهو نهاية اكتمال العقل والرشد[١] ﴿قال ربِّ أوزعني أن أشكرَ نعمتك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ﴾ أي قال ربِّ ألهمني شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وعلى والديَّ حتى ربياني صغيراً ﴿وأنْ أعملَ صالحاً ترضاه﴾ أي ووفقني لكي أعمل عملاً صالحاً يرضيك عني ﴿وأصلحْ لي في ذريتي﴾ أي اجعل ذريتي ونسلي صالحين **قال شيخ زاده** : طلب هذا الداعي من الله ثلاثة أشياء : **الأول** : ان يوفقه الله للشكر على النعمة **والثاني**: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله **والثالث**: أن يصلح له في ذريته ، وهذه كمال السعادة البشرية[٢] ﴿إني تُبتُ إليكَ وإني من المسلمين﴾ أي إني يا رب تبت إليك من جميع الذنوب ، وإني من المستمسكين بالإسلام **قال ابن كثير** : وفي الآية إرشادٌ لمن بلغ الأربعين أن يجدِّد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها[٣] ﴿أولئك الذين نتقبلُ عنهم أحسنَ ما عملوا﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر نتقبل منهم طاعاتهم ونجازيهم على أعمالهم بأفضلها ﴿ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة﴾ أي ونصفح عن خطيئاتهم وزلاتهم ، في جملة أصحاب الجنة الذين نكرمهم بالعفو والغفران ﴿وعدَ الصِّدقِ الذي كانوا يُوعدون﴾ أي بذلك الوعد الصادق الذي وعدناهم به على ألسنة الرسل ، بأن نتقبل من محسنهم ونتجاوز عن مسيئهم . . ولما مثَّل تعالى لحال الإنسان البار بوالديه وما آل إليه حاله من الخير والسعادة ، مثَّل لحال الإنسان العاقِّ لوالديه وما يئول إليه أمره من الشقاوة والتعاسة فقال ﴿والذي قال لوالديه أفٍ لكما﴾ أي وأمَّا الولد الفاجر الذي يقول لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان أفٍ لكما أي قبحاً لكما على هذه الدعوة ﴿أتعِدانني أن أُخرج وقد خلتِ القرونُ من قبلي﴾ ؟ أي أتعدانني أن أُبعث بعد الموت وقد مضت قرونٌ من الناس قبلي ولم يُبعث منهم أحد ؟ ﴿وهما يستغيثان اللهِ ويْلك آمن﴾ أي وأبواه يسألان الله أن يغيثه ويهديه للإسلام قائلين له : ويْلك آمنْ بالله وصدِّق بالبعث والنشور وإلاّ هلكت ﴿إنَّ وعدَ اللهِ حقٌ﴾ أي وعدُ الله صدقٌ لا خُلف فيه ﴿فيقولُ ما هذا إلا أساطيرُ الأولين﴾ أي فيقول ذلك الشقي : ما هذا الذي تقولان من أمر البعث إلاّ خرافات وأباطيل سطَّرها الأولون في الكتب مما لا أصل له **قال تعالى** ﴿أُولئك الذين حقَّ عليهم القول﴾ أي أولئك المجرمون هم الذين حقَّ عليهم قول الله بأنهم أهل النار

(١) قال العلماء : ولذلك لم يبعث نبيٌ قبل أربعين . (٢) حاشية البيضاوي ٣/ ٣٣٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٢٠ .

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٩﴾

قال القرطبي : أي وجب عليهم العذاب وهي كلمة الله كما في الحديث (هؤلاء في النار ولا أبالي)[1] **﴿في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾** أي في جملة أمم من أصحاب النار قد مضت قبلهم من الكفرة الفجار من الجن والإنس **﴿إنهم كانوا خاسرين﴾** أي كانوا كافرين لذلك ضاع سعيهم وخسروا آخرتهم ، وهو تعليل لدخولهم جهنم **قال الإمام الفخر** : قال بعضهم : إن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصّديق قبل إسلامه ، والصحيحُ أنه لا يراد بالآية شخص معيَّن ، بل المراد منها كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحقِّ فأباه وأنكره ، ويدل عليه أن الله تعالى وصف هذا الذي قال لوالديه **﴿أفٍ لكما﴾** بأنه من الذين حقَّ عليهم القول بالعذاب ، ولا شك أن عبد الرحمن آمن وحسن إسلامه وكان من سادات المسلمين فبطل حمل الآية عليه[2] **﴿ولكلٍ درجاتٌ مِمَّا عملوا﴾** أي لكلٍ من المؤمنين والكافرين مراتب ومنازل بحسب أعمالهم ، فمراتب المؤمنين في الجنة عالية ، ومراتب الكافرين في جهنم سافلة **﴿وليوفيهم أعمالهم وهم لا يُظلمون﴾** أي وليعطيهم جزاء أعمالهم وافية كاملة،المؤمنون بحسب الدرجات،والكافرون بحسب الدركات،من غير نقصان بالثواب،ولا زيادة في العقاب .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ويوم يُعرض الذين كفروا على النار . . . إلى . . . فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون﴾

من آية (٢٠) إلى آية (٣٩) نهاية السورة

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى أحوال بعض الأشقياء ، أعقبه بذكر حال الكفار الفجار في الآخرة ، ثم ذكر قصة عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم مع ما كانوا عليه من القوة والشدة ، تذكيراً لكفار قريش بعاقبة التكذيب والطغيان ، وختم السورة الكريمة بقصة النفر من الجنِّ الذين آمنوا بالقرآن حين سمعوه ودعوا قومهم إلى الإيمان .

اللغَة : **﴿الهون﴾** الهوان والذل **﴿الأحقاف﴾** الرمال العظيمة جمع حِقْف وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوجَّ ، والأحقاف ديار عاد[3] **﴿لتأفكنا﴾** لتصرفنا وتزيلنا ، والإفك : الكذب **﴿عارضاً﴾** سحاباً يعرض في الأفق **﴿تدمِّر﴾** تُهلك ، والتدميرُ الهلاك وكذلك الدَّمار **﴿صرفْنا﴾** بعثنا ووجهنا **﴿يَعْي﴾** يضعف ويعجز من الإعياء وهو التعب والعجز .

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

التفسِير : **﴿ويومَ يُعرضُ الذين كفروا على النَّار﴾** أي وذكّرهم يا محمد يوم يُكشف الغطاء عن نار جهنم ، وتبرز للكافرين فيقرَّبون منها وينظرون إليها **﴿أذْهبتُم طيباتِكُم في حياتكم الدنيا﴾** في

(١) تفسير القرطبي ١٦/١٩٨ . (٢) التفسير الكبير ٢٨/٢٣ وهذا اختيار المحققين من المفسرين كابن كثير والقرطبي وأبي السعود وصاحب البحر المحيط . (٣) تفسير القرطبي ١٦/٢٠٣ .

ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ * وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾

الكلام حذف أي ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً أذهبتم طيباتكم أي لقد نلتم وأصبتم لذائذ الدنيا وشهواتها فلم يبق لكم نصيب اليوم في الآخرة **قال في البحر** : والطيبات هنـا المستلـذات من المآكل والمشـارب ، والملابس والمفارش ، والمراكب والمواطىء ، وغير ذلك مما يتنعَّم به أهل الرفاهية[1] ﴿**واستمتعتـم بهـا**﴾ أي وتمتعتـم بتلك اللذائذ والطيبات في الدنيا **قال المفسرون** : المراد بالآية إنكم لم تؤمنوا حتى تنالـوا نعيم الآخرة ، بل اشتغلتـم بشهـوات الـدنيا ولذائذهـا عن الإيمـان والطاعـة ، وأفنيتـم شبابكـم في الكفـر والمعاصي ، وآثرتم الفاني على الباقي ، فلم يبْق لكم بعد ذلك شيء من النعيم ، ولهذا قال بعده ﴿**فاليـوم تُجـزون عـذَاب الهُـون**﴾ أي ففـي هذا اليوم ـ يوم الجـزاء ـ تنالـون عذاب الـذُلِّ والهَـوان ﴿**بما كنتُـم تسْتكبـرون فـي الأرض بغيـر الحـقّ**﴾ أي بسبب استكباركم في الدنيا عن الايمان وعن الطاعـة ﴿**وبما كنتـم تفْسُـقون**﴾ أي وبسبب فسقكم وخروجكم عن طاعة الله ، وارتكاب الفجور والآثام **قال الإمام الفخر** : وهذه الآية لا تدل على المنع من التنعم ، لأن هذه الآية وردت في حق الكافر ، وإنما وبَّخ الله الكافر لأنه يتمتع بالدنيا ولا يؤدي شكر المنعم بطاعته والإيمان به ، وأما المؤمن فإنه يؤدي بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ودليله ﴿قُـل مـنْ حرَّم زينةَ الله التي أخرج لعباده والطيبات مـن الرزق﴾ ! ! نعم لا يُنكر أن الاحتراز عن التنعم أولى ، وعليه **يُحمل** قول عمر « لو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعاماً ، وأحسنكم لباساً ، ولكني أستبقي طيباتي لحياتي الآخرة »[2] **وقال في التسهيل** : الآية في الكفار بدليل قولـه تعـالى ﴿ويوم يُعـرض الذيـن كفروا﴾ وهي مع ذلك واعظةٌ لأهل التقوى من المؤمنين ، ولذلك قال عمر لجابر ابن‌عبد الله ـ وقد رآه اشترى لحماً ـ أوكلما اشتهى أحدكم شيئاً جعله في بطنه ! أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ممن قال الله فيهم ﴿أذهبتـم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾[3] !! ﴿**واذكـر أخَـا عـادٍ**﴾ أي اذكر يا محمد لهؤلاء المشركين قصة نبي الله هود عليه السلام مع قومه عادٍ ليعتبروا بها ﴿**إذْ أنْـذر قومَـهُ بالأحْقـافِ**﴾ أي حين حذَّر قومه من عذاب الله إن لم يؤمنوا وهـم مقيمون بالأحقاف ـ وهي تلالٌ عظيمة من الرمل في بلاد اليمن ـ **قال ابن كثير** : الأحقاف جمع حِقْف وهو الجبل من الرمل ، قال قتادة : كانوا حياً باليمن أهل رملٍ مشرفين على البحر بأرضٍ يُقال لها : الشِّحْر[4] ﴿**وقـدْ خلَـتِ النُّذُر مـنْ بيـنِ يديه ومـن خلفـه**﴾ أي وقد مضت الرسلُ بالإنذار من قبل هودٍ ومن بعده ، والجملة اعتراضية وهي إخبار من الله تعالى أنه قد بعث رسلاً متقدمين قبل هودٍ وبعده ﴿**ألاَّ تعبدوا إلاَّ الله**﴾ أي حذَّرهم هود عليه السلام قائلا لهم : بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿**إني أخـافُ عليكـم عذاب يـوْمٍ عظيـم**﴾ أي إني أخاف عليكم إن عبدتم غير الله عذاب يومٍ

(١) البحر المحيط ٨/ ٦٣ . (٢) التفسير الكبير ٢٨/ ٢٥ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٤ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٢٢ .

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا﴾

هائلٍ وهو يوم القيامة **﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾** أي قالوا جواباً لإِنذاره : أجئتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ وهو استفهام ، يراد منه التسفيه والتجهيل لما دعاهم إليه **﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾** أي فأتنا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقاً فيما تقول قال ابن كثير : استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم لوقوعه[1] **﴿قالَ إنَّما العِلمُ عِندَ اللّهِ﴾** أي قال لهم هود : ليس علم وقت العذاب عندي إنما علمه عند الله **﴿وأُبلِّغُكُم ما أُرسِلتُ بِه﴾** أي وإنما أنا مبلِّغٌ ما أرسلني به الله إليكم **﴿ولكنّي أراكُم قوماً تجهلون﴾** أي ولكنني أجدكم قوماً جهلة في سؤالكم استعجال العذاب **﴿فلما رأَوْهُ عارضاً مُستقبل أوْديتهم﴾** أي فلما رأوا السحاب معترضاً في أفق السماء متجهاً نحو أوديتهم استبشروا به **﴿قالوا هذا عارضٌ ممطرُنا﴾** أي وقالوا هذا السحاب يأتينا بالمطر قال المفسرون : كانت عاد قد أبطأ عنهم المطر ، وقُحطوا مدةً طويلةً من الزمن ، فلما رأوا ذلك السحاب العارض ظنوا أنه مطر ففرحوا به واستبشروا وقالوا : هذا عارضٌ ممطرنا **﴿بل هو ما استعجلتم به﴾** أي قال لهم هود : ليس الأمر كما زعمتم أنه مطر ، بل هو ما استعجلتم به من العذاب ثم فسَّره بقوله **﴿ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ﴾** أي هو ريحٌ عاصفة مدمِّرة فيها عذابٌ فظيع مؤلم **﴿تُدَمِّرُ كلَّ شيءٍ بأمرِ ربِّها﴾** أي تُخرِّبُ وتُهلك كل شيء أتت عليه من رجالٍ ومواشٍ وأموال ، بأمره تعالى وإذنه قال ابن عباس : أول ما جاءت الريح على قوم عاد ، كانت تأتي على الرجال والمواشي فترفعهم من الأرض وتطير بهم إلى السماء حتى يصبح الواحد منهم كالريشة ، ثم تضربهم على الأرض ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم ، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، فهي التي قال الله فيها **﴿تدمّر كل شيء بأمر ربها﴾** أي تدمّر كل شيء مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها ، والتدميرُ الهلاك[2] ، وفي الحديث عن عائشة قالت : (كان ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف في وجهه ، فقلت يا رسول الله : الناسُ إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية ؟ فقال يا عائشة : ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، عُذِّب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا **﴿هذا عارضٌ ممطرنا﴾**[3] **﴿فأصبحوا لا يُرى إلاّ مساكنهم﴾** أي فأصبحوا هلكى لا تُرى إلا مساكنهم ، لأن الريح لم تبق منهم إلا الآثار والديار خاوية **﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾** أي بمثل هذه العقوبة الشديدة نعاقب من كان عاصياً مجرماً قال الرازي : والمقصود منه تخويف أهل مكة[4] ، ولهذا قال بعده **﴿ولقد مكنّاهم فيما إنْ مكّنّاكُم فيه﴾** « إنْ » نافية بمعنى « ما » أي ولقد مكّنّا عاداً في

(١) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة . (٢) انظر تفسير القرطبي ١٦/ ٢٠٦ (٣) أخرجه البخاري . (٤) التفسير الكبير للرازي ٢٨/ ٢٩ .

وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم

الذي لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من القوة ، والسَّعة ، وطول الأعمار[1] ، وهو خطاب لكفار مكة على وجه التهديد **﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾** أي وأعطيناهم الأسماع والأبصار والقلوب ، ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على الخالق المنعم **﴿فما أغنى عنهم سمْعُهم ولا أبصارهُم ولا أفئدتُهم منْ شيء﴾** أي فما نفعتهم تلك الحواس أي نفع ، ولا دفعت عنهم شيئاً من عذاب الله **قال الإمام الفخر** : المعنى أنّا فتحنا عليهم أبواب النعم : أعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الدلائل ، وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبَر ، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله ، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها ، فلا جرم أنها لم تغن عنهم من عذاب الله شيئاً **﴿إذْ كانوا يجحدون بآياتِ اللهِ﴾** تعليلٌ لما سبق أي لأنهم كانوا يكفرون وينكرون آيات الله المنزّلة على رسله ويكذبون رسله **﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** أي ونزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلون به بطريق الاستهزاء **﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القُرى﴾** تخويفٌ آخر لكفار مكة أي ولقد أهلكنا القرى المجاورة لكم يا أهل مكة والمحيطة بكم ، كقرى عاد وثمود وسبأ وقوم لوط ، والمراد بإهلاك القرى إهلاكُ أهلها **﴿وصرَّفنا الآياتِ لعلهم يرجعون﴾** أي وكررنا الحجج والدلالات ، والمواعظ والبينات ، أوضحناها وبيَّناها لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم وضلالهم **﴿فلولا نصَرَهُم الذين اتَّخذوا من دُونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً﴾** أي فهلاً نصرتهم آلهتهم التي تقربوا بها إلى الله بزعمهم ، وجعلوها شفعاءهم لتدفع عنهم العذاب ؟ ! و « لولا » تحضيضية بمعنى هلاً ومعناها النفي أي لم تنصرهم آلهتهم ولم تدفع عنهم عذاب الله **﴿بل ضلُّوا عنهم﴾** أي غابوا عن نصرتهم وهم أحوج ما يكونون إليهم ، فإن الصديق وقت الضيق **قال أبو السعود** : وفي الآية تهكمٌ بهم كأنَّ عدم نصرهم كان لغيبتهم[2] **﴿وذلك إفْكُهم وما كانوا يفترون﴾** أي وذلك الذي أصابهم هو كذبهم وافتراؤهم على الله ، حيث زعموا أن الأصنام شركاء لله وشفعاء لهم عند الله **﴿وإذْ صرفْنا إليكَ نفراً منَ الجنِّ يستمعون القرآن﴾** أي واذكر يا محمد حين وجهنا إليك وبعثنا جماعةً من الجن ليستمعوا القرآن **قال البيضاوي** : والنفر دون العشرة ، روي أنهم وافوا رسول الله ﷺ بوادي النخلة عند منصرفه من الطائف يقرأ في تهجده القرآن[3] **﴿فلمَّا حضرُوه قالوا أنْصِتوا﴾** أي فلما

---

(١) ذهب بعض المفسرين الى أنّ « إن » زائدة والمعنى ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه أي في مثل الذي مكناكم فيه ، والأول أرجح لأن المقصود أنهم كانوا أقوى منكم ومع ذلك ما نجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم ؟ وإنما لم يؤت بـ « ما » فيقال: **فيما مكّناكم فيه ، دفعاً لثقل التكرار؟**

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٦٩ . (٣) حاشية البيضاوي ٣/ ٣٤١ .

مُنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟

حضروا القرآن عند تلاوته قال بعضهم لبعض : اسكتوا لاستماع القرآن قال القرطبي : هذا توبيخٌ لمشركي قريش ، أي إن الجنَّ سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله ، وأنتم معرضون مصرّون على الكفر[1] ﴿فلمَّا قُضيَ ولَّوا إلى قومهم مُنْذرين﴾ أي فلما فُرِغَ من قراءة القرآن رجعوا إلى قومهم مخوفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا قال الرازي : وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم ، لأنهم لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلاّ وقد آمنوا[2] ﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى﴾ أي سمعنا كتاباً رائعاً مجيداً منزلاً على رسولٍ من بعد موسى قال ابن عباس : إن الجنَّ لم تكن قد سمعت بأمر عيسى عليه السلام[3] ﴿مصدِّقاً لما بين يديه﴾ أي مصدّقاً لما قبله من التوراة ﴿يهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم﴾ أي هذا القرآن يرشد إلى الحقِّ المبين ، وإلى دين الله القويم ﴿يا قومنا أجيبوا داعيَ اللهِ وآمنوا به﴾ أي أجيبوا محمداً ﷺ فيما يدعوكم إليه من الإيمان وصدِّقوا برسالته ﴿يغفرْ لكم من ذنوبكم﴾ أي يمحو الله عنكم الذنوب والآثام ﴿ويُجركم من عذابٍ أليم﴾ أي ويخلِصكم وينجكم من عذاب شديد مؤلم ﴿ومنْ لا يُجب داعيَ اللهِ فليس بمعجزٍ في الأرض﴾ هذا ترهيبٌ بعد الترغيب أي ومن لم يؤمن بالله ويستجب لدعوة رسوله ، فإنه لا يفوت الله طلباً ، ولا يعجزه هرباً ﴿وليسَ له من دونه أولياء﴾ أي وليس له أنصار يمنعونه من عذاب الله ﴿أولئك في ضلالٍ مبين﴾ أي أولئك الذين لا يستجيبون لدعوة الله في خسرانٍ واضح ، وإلى هنا آخر كلام الجن الذين سمعوا القرآن ، ثم ذكر تعالى الأدلة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿أولَمْ يروا أنَّ اللهَ الذي خلقَ السمواتِ والأرض﴾ أي أولم يعلم هؤلاء الكفار المنكرون للبعث والنشور أن الله العظيم القدير الذي خلق السمواتِ والأرض ابتداءً من غير مثال سابق ﴿ولم يعْيَ بخلقهنَّ﴾ أي ولم يضعف ولم يتعب بخلقهنَّ ﴿بقادرٍ على أن يُحْيي الموتى﴾ ؟ أي قادرٌ على أن يعيد الموتى بعد الفناء ، ويحييهم بعد تمزق الأشلاء ؟ ﴿بلى إنه على كل شيء قدير﴾ أي بلى إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء ، فكما خلقهم يعيدهم ﴿ويوم يُعرض الذين كفروا على النَّار﴾ أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين الأهوال والشدائد التي يرونها في الآخرة ، وذكِّرهم يوم يُعرضون على النار فيقال لهم ﴿أليس هذا بالحقّ﴾ ؟ أي أليس هذا العذاب الذي تذوقونه حقٌّ ؟ ﴿أفسحرٌ هذا أم أنتم لا

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٢١٠ . (٢) التفسير الكبير ٢٨/ ٣٢ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٧٠ .

﴿ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

تبصرون﴾ ﴿قالوا بلى وربّنا﴾ أي قالوا بلى وعزة ربنا ، أكّدوا كلامهم بالقسم طمعاً في الخلاص قال الفخر الرازي : والمقصود بالآية التهكمُ بهم ، والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم : ﴿وما نحن بمعذبين﴾[1] ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي فيقال لهم : ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم ﴿فاصبر كما صبر أُولوا العزم من الرسل﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين كما صبر مشاهير الرسل الكرام وهم « نوح وإبراهيم وموسى وعيسى » ﴿ولا تستعجلْ لهم﴾ أي ولا تدع على كفار قريش بتعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار﴾ أي كأنهم حين يعاينون العذاب في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعةً واحدة من النهار ، لما يشاهدون من شدة العذاب وطوله ﴿بلاغٌ﴾ أي هذا بلاغ وإنذار ﴿فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون﴾ أي لا يكون الهلاك والدمار إلا للكافرين الخارجين عن طاعة الله .

تـنـبـيـه : قال المفسرون : « إن الجنَّ كانوا يسترقون السمع ، فلما حُرست السماء بالشهب ، قال إبليس : إن هذا الذي حدث بالسماء من أمر حدث في الأرض ، فبعث سراياه ليعرف الخبر ، فذهب ركبٌ من نصيبين ـ وهم أشراف الجن ـ إلى تهامة ، فلما بلغوا بطن نخلة سمعوا النبي ﷺ يصلي ويتلو القرآن ، فاستمعوا له وقالوا : أنصتوا ثم لما انتهى ﷺ من القراءة آمنوا ثم رجعوا الى قومهم منذرين فدعوهم إلى الايمان ، وجاءوا بعد ذلك جماعات جماعات إلى النبي ﷺ فذلك سبب قوله تعالى ﴿وإذْ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾

البـلاغـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التعجيز ﴿آئتوني بكتاب من قبل هذا﴾ أمرٌ يراد منه التعجيز .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿يدعو . . وهم عن دعائهم﴾ ومثله ﴿وشهد شاهد﴾ .

٣ ـ الطباق بين ﴿آمن . . وكفرتم﴾ وبين ﴿ينذر . . وبشرى﴾ .

٤ ـ ذكر الخاص بعد العام ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ ثم قال ﴿حملته أُمه كرهاً﴾ فذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية والاهتمام بشأن الأم لحقها العظيم .

٥ ـ الطباق بين ﴿حملته . . ووضعته﴾ .

٦ ـ صيغة الحصر ﴿ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ .

٧ ـ الاستعارة ﴿ولكلٍ درجاتٌ مما عملوا﴾ استعار الدرجات للمراتب ، للسعداء والأشقياء .

(١) التفسير الكبير ٢٨/ ٣٤ .

٨ ـ الإيجاز بالحذف مع التوبيخ والتفريع ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ أي يقال لهم أذهبتم .

٩ ـ الإطناب بتكرار اللفظ ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾ ثم قال ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم﴾ لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم .

١٠ ـ توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام وحسن تناسقه وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿وحاق بهم ما كانوا يستهزئون﴾ ﴿وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ ﴿وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة محمد من السور المدنية ، وهي تُعْنَى بالأحكام التشريعية ، شأن سائر السور المدنية ، وقد تناولت السورة أحكام القتال ، والأسرى ، والغنائم ، وأحوال المنافقين ، ولكـنَّ المحور الذي تدور عليه السورة هو موضوع « الجهاد في سبيل الله » ؟

* ابتدأت السورة الكريمة بدءاً عجيباً ، بإعلان حربٍ سافرة على الكفار أعداء الله ، وأعداء رسوله ، الذين حاربوا الإسلام ، وكذبوا الرسول ﷺ ، ووقفوا في وجه الدعوة المحمدية ، ليصدوا الناس عن دين الله ﴿الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله أضلَّ أعمالهم . .﴾ الآيات .

* ثم أمرت المؤمنين بقتال الكافرين ، وحصدهم بسيوف المجاهدين ، لتطهير الأرض من رجسهم ، حتى لا تبقى لهم شوكةٌ ولا قوة ، ثم دعت إلى أسرهم بعد إكثار القتل فيهم والجراحات ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق . .﴾ الآيات .

* ثم بيَّنت طريق العزَّة والنصر ، ووضعت الشروط لنصرة الله لعباده المؤمنين ، وذلك بالتمسك بشريعته ، ونصرة دينه ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبِّتْ أقدامكم . .﴾ الآيات .

* وضربت لكفار مكة الأمثال بالطغاة المتجبرين من الأمم السابقة ، وكيف دمَّر الله عليهم بسبب إجرامهم وطغيانهم ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذينَ من قبلهم دمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾ .

* وتحدثت السورة بإسهاب عن صفات المنافقين ، باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين ، فكشفت عن مساوئهم ومخازيهم ليحذر الناس مكرهم وخبثهم ﴿ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم . .﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بدعوة المؤمنين إلى سلوك طريق العزة والنصر ، بالجهاد في سبيل الله

وعدم الوهن والضعف أمام قوى الشر والبغي ، وحذَّرت من الدعوة إلى الصلح مع الأعداء ، حرصاً على الحياة والبقاء ، فإن الحياة الدنيا زائلة فانية ، وما عند الله خيرٌ للأبرار ﴿فلا تَهِنوا وتَدْعوا إلى السَّلْمِ وأنتم الأعلون واللهُ معكم ولن يَتِرَكُمْ أعمالكم ۞ إنما الحياة الدنيا لعِبٌ ولهوٌ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألْكم أموالَكم . .﴾ إلى نهاية السورة الكريمة .

وهكذا ختمت السورة بالدعوة إلى الجهاد ، كما بدأت بالدعوة إليه ، حفزاً لعزائم المؤمنين ، وليتناسق البدء مع الختام ألطف التنام !!

* * *

قال الله تعالى : ﴿الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله أضلَّ أعمالهم . . إلى . . والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٩) .

اللغَة : ﴿كفَّر﴾ أزال ومحا ﴿أثخنتموهم﴾ أكثرتم فيهم القتل والجراح والأسر قال في المصباح : أثخن في الأرض إثخاناً ، سار إلى العدو وأوسعهم قتلاً ، وأثخنته الجراحة أوهنته وأضعفته[1] ﴿الوثاق﴾ القيد والحبل الذي يربط به ﴿منّاً﴾ إطلاق الأسير من غير فدية ﴿أوزارها﴾ آلاتها وأثقالها وهي الأسلحة والعتاد يقال : وضعت الحرب أوزارها أي انقضت الحرب وانتهت ، وأصل الأوزار الأثقال من السلاح والخيل قال الشاعر :

وأعددتُ للحرب أوزارها ... رماحاً طوالاً وخيلاً ذكوراً[2]

﴿تعساً﴾ شقاءً وهلاكاً ﴿آسن﴾ متغيّر ومنتن ﴿حميماً﴾ حاراً شديد الحرارة ﴿آنفاً﴾ الآن ، من قولهم ، استأنف الأمر إذا ابتدأ به ﴿أشراط﴾ أمارات وعلامات .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾

التفسِير : ﴿الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله﴾ هذا إعلان حربٍ من الله تعالى على أعدائه وأعداء دينه والمعنى الذين جحدوا بآيات الله وأعرضوا عن الإسلام ، ومنعوا الناس عن الدخول فيه ﴿أضلَّ أعمالهم﴾ أي أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة لا ثواب لها لأنها لم تكن لله فبطلت ، والمراد أعمالهم الصالحة كإطعام الطعام ، وصلة الأرحام ، وقرى الضيف قال الزمخشري : وحقيقة إضلال الأعمال جعلُها ضالةً ضائعة ، ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الإبل ، التي لا ربَّ لها يحفظها ويعتني بأمرها ، والمراد أعمالهم التي عملوها في كفرهم بما كانوا يسمونه «مكارم الأخلاق» ، من صلة

(١) المصباح المنير مادة ثخن . (٢) البيت للأعشى كذا في القرطبي ١٦/ ٢٢٩

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم

الأرحام ، وفك الأسارى ، وقرى الأضياف ، وحفظ الجوار[1] ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين الإِيمان الصادق ، والعمل الصالح ﴿وآمنوا بما نُزِّل على محمد﴾ أي صدّقوا بما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ تصديقاً جازماً لا يخالجه شك ولا ارتياب وهو عطف خاص على عام ، والنكتةُ فيه تعظيم أمره والاعتناء بشأنه ، إشارةً إلى أن الإِيمان لا يتمُّ بدونه[2] ، ولذا أكَّده بقوله ﴿وهو الحقُّ من ربهم﴾ أي وهو الثابت المؤكد المقطوع بأنه كلام الله ووحيهُ المنزَّل من عند الله ، والجملة اعتراضية لتأكيد السابق ﴿كفَّر عنهم سيئاتهم﴾ أي أزال ومحا عنهم ما مضى من الذنوب والأوزار ﴿وأصلح بالهم﴾ أي أصلح شأنهم وحالهم ، في دينهم ودنياهم ، ثم بيَّن تعالى سبب ضلال الكفار ، واهتداء المؤمنين فقال ﴿ذلك بأنَّ الذين كفروا اتَّبعوا الباطل﴾ أي ذلك الإِضلال لأعمال الكفار بسبب أنهم سلكوا طريق الضلال ، واختاروا الباطل على الحق ﴿وأنَّ الذين آمنوا اتَّبعوا الحقَّ من ربهم﴾ أي وأن المؤمنين سلكوا طريق الهدى ، وتمسّكوا بالحق والإِيمان المنزل من عند الرحمن ﴿كذلك يضربُ اللهُ للناس أمثالَهم﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح ، بيَّن الله أمر كلٍ من الفريقين ـ المؤمنين والكافرين ـ بأوضح بيانٍ ، وأجلى برهان ليعتبر الناس ويتعظوا . . وبعد إعلان هذه الحرب السافرة على الكافرين أمر تعالى المؤمنين بجهادهم فقال ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب﴾ أي فإذا أدركتم الكفار في الحرب فاحصدوهم حصْداً بالسيوف قال في التسهيل : وأصله فاضربوا الرقاب ضرباً ثم حذف الفعل وأقام المصدر مقامه والمراد : اقتلوهم ، ولكنْ عبَّر عنه بضرب الرقاب لأنه الغالب في صفة القتل[3] ﴿حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق﴾ أي حتى إذا هزمتموهم وأكثرتم فيهم القتل والجراحات ولم تبق لهم قوة للمقاومة فأسروهم وكفُّوا عن قتلهم قال الزمخشري : وفي هذه العبارة ﴿فضرب الرقاب﴾ من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل ، لما فيها من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حزُّ العنق وإطارة رأس البدن ، ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ ومعنى ﴿أثخنتموهم﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه ﴿فشدُّوا الوثاق﴾ أي فأسروهم ، والوثاقَ اسم لما يربط من حبلٍ وغيره[4] ﴿فإمَّا منّاً بعدُ وإمَّا فداءً﴾ أي ثم أنتم مخيَّرون بعد أسرهم إمَّا أن تمنُّوا عليهم وتطلقوا سراحهم بلا مقابل من مال ، أو تأخذوا منهم مالاً فداءً لأنفسهم ،ولكنْ بعد أن تكونوا قد كسرتم شوكتهم ،

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠ . (٢) حاشية الصاوي ٤/ ٨١ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٦ . (٤) الكشاف ٤/ ٢٥١ .

بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

وأعجزتموهم بكثرة القتل والجراح ﴿حتى تضع الحربُ أوزارها﴾ أي حتى تنقضي الحرب وتنتهي بوضع آلاتها وأثقالها، وتنتهي الحرب بين المسلمين والمناوئين له، وذلك بعزة الإسلام واندحار المشركين ﴿ذلكَ ولو يشاءُ الله لانْتصر منهم﴾ أي الأمر فيهم ما ذُكر، ولو أراد الله لانتصر منهم وأهلكهم بقدرته، دون أن يكلفكم - أيها المؤمنون - إلى قتالهم قال ابن كثير: أي لو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبةٍ ونكالٍ من عنده[1] ﴿ولكنْ ليبْلُوا بعضكم ببعضٍ﴾ أي ولكنَّه أمركم بجهادهم ليختبر إيمانكم وثباتكم، فيظهر حال الصادق في الايمان من غيره كما قال تعالى ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾ وليبتلي المؤمنين بالكافرين والكافرين بالمؤمنين، فيصير من قُتل من المؤمنين إلى الجنة، ومن قتل من الكافرين إلى النار ولهذا قال ﴿والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضلَّ أعمالهم﴾ أي والذين استشهدوا في سبيل الله فلن يُبطل الله عملهم، بل يكثّره ويضاعفه وينمّيه ﴿سيهديهم﴾ أي سيهديهم إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، بتوفيقهم إلى العمل الصالح وإرشادهم إلى الجنة دار الأبرار ﴿ويُصلح بالَهم﴾ أي ويُصلح حالهم وشأنهم ﴿ويُدخلهم الجنةَ عرَّفها لهم﴾ أي ويدخلهم الجنة دار النعيم بيَّنها لهم بحيث يعلم كل واحدٍ منزله ويهتدي إليه قال مجاهد: يهتدي أهلُها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خُلقوا[2] وفي الحديث (والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا)[3] ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا اللّه يَنْصرْكم﴾ أي إن تنصروا دينه ينصركم على أعدائكم ﴿ويثبّت أقدامكم﴾ أي ويثبتكم في مواطن الحرب ﴿والذين كفروا فتعساً لهم﴾ أي والذين كفروا بالله وآياته فهلاكاً وشقاءً لهم، وهو دعاءٌ عليهم بالتعاسة والخيبة والخذلان ﴿وأضلَّ أعمالَهم﴾ أي أبطلها وأحبطها لأنها كانت في طاعة الشيطان ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل اللهُ﴾ أي ذلك التعس والاضلال بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من الكتب والشرائع قال الزمخشري: أي كرهوا القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحكام، لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العَنان في الشهوات والملاذّ فشقّ عليهم ذلك وتعاظمهم[4] ﴿فأحبط أعمالهم﴾ أي أذهبها وأضاعها لأن الايمان شرط لقبول الأعمال، والشرك محبطٌ للعمل[5]، ثم خوَّفهم تعالى عاقبة الكفر فقال ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٣٠. (٢) البحر المحيط ٨/ ٧٥. (٣) جزء من حديث رواه البخاري

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٣. (٥) قال في الظلال: «وإحباط الأعمال تعبير تصويريٌ على طريقة القرآن في التصوير. فالحبوط انتفاخ بطون الماشية عند أكلها نوعاً من المرعى أو النبات السام، ينتهي بها إلى الهلاك والموت، وكذلك هؤلاء الكفار انتفخت أعمالهم وورمت ثم انتهت إلى الهلاك والضياع، إنها صورة وحركة مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله، ثم تاهوا بالأعمال الضخام المنتفخة كبطون الأنعام، حين ترعى ذلك النبت السام» الظلال ٢٥/ ٦٠.

* أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾

كان عاقبةُ الذين من قبلهم﴾ أي أفلم يسافر هؤلاء ليروا ما حلَّ بمن سبقهم من الأمم الطاغية كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من المجرمين ، كيف كان مآلهم ؟ وماذا حلَّ بهم من العذاب ؟ فإنَّ آثار ديارهم تنبىء عن أخبارهم **﴿دمَّر الله عليهم﴾** أي أهلكهم الله ، واستأصل كل ما يخصهم من مالٍ وبنين ومتاع ، فإذا هو أنقاض متراكمة وإذا هم تحت هذه الأنقاض «ودمَّر عليهم» أبلغ من دمَّرهم لأن معناها أهلكهم مع أموالهم ودورهم وأولادهم وأطبق عليهم الهلاك إطباقاً فلم يبق شيء إلا شمله الدمار **﴿وللكافرين أمثالُها﴾** أي ولكفار مكة أمثال تلك العاقبة الوخيمة والعذاب المدمّر **﴿ذلك بأنَّ اللهَ مولى الذين آمنوا﴾** أي وليُّهم وناصرهم **﴿وأنَّ الكافرين لا مولى لهم﴾** أي لا ناصر لهم ولا معين ولا مغيث ، ثم بيَّن تعالى مآل كلٍ من الفريقين ـ المؤمنين والكافرين ـ في الآخرة فقال **﴿إنَّ اللَّهَ يُدخل الذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحات جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾** أي يدخل المؤمنين جناتِ النعيم ، التي فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر **﴿والذين كفروا يتمتَّعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعامُ﴾** أي والكافرون في الدنيا ينتفعون بشهواتها ولذائذها ، ويأكلون كما تأكل البهائم ، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم **﴿والنَّارُ مثْوى لهم﴾** أي وجهنم مقامهم ومنزلهم في الآخرة قال **الزمخشري** : المراد أنهم ينتفعون بمتاع الدنيا أياماً قلائل ، ويأكلون غافلين غير مفكرين في العاقبة كما تأكل الأنعام في مسارحها ومعالفها غافلةً عما هي بصدده من النحر والذبح ، والنار منزل ومقام لهم في الآخرة . .[1] ثم سلَّى تعالى رسولهﷺ فقال **﴿وكأيِّن من قريةٍ هيَ أشدُّ قوةً من قريتكَ التي أخرجتك﴾** أي وكم من أهل قرية[2] عاتية ظالمة كانوا أقوى من أهل مكة الذين أخرجوك منها **﴿أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾** أي أهلكناهم بأنواع العذاب فلم ينصرهم أحد فكذلك نفعل بهؤلاء قال **ابن عباس** : لما خرج النبيﷺ من مكة واختفى بالغار ثم خرج مهاجراً إلى المدينة ، التفت إلى مكة ثم قال (إنك لأحبُّ البلاد إلى الله ، وأحبُّ البلاد إليَّ ، ولولا أنَّ قومك أخرجوني منك ما خرجت فنزلت الآية[3] **﴿أفمن كانَ على بيِّنةٍ من ربِّه﴾** أي هل من كان على حجة وبصيرة ، وثباتٍ ويقين من أمر دينه **﴿كمنْ زُيِّن له سوء عمله﴾** ؟ أي كمن زُيِّن له عمله القبيح فرآه حسناً ؟ **﴿واتَّبعوا أهواءهم﴾** أي انهمكوا في الضلال حتى

(١) تفسير الكشاف ٤/ ٢٥٣ (٢) الكلام على حذف مضاف أي من أهل قرية وهو مجازٌ مشهور . (٣) حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ١٤٥ .

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟

عبدوا الهوى ؟ ليس هذا كهذا ، وإنما جاء بصيغة الجمع مراعاةً للمعنى قال المفسرون : يريد بـ ﴿من كان على بينة﴾ رسول الله ﷺ وبمن ﴿زُيِّن له سوء عمله﴾ أبا جهل وكفار قريش . .واللفظ أعمُّ لأن الغرض المباينة بين من يعبد الله ، وبين من يعبد هواه ، ولذلك مثَّل بعده بالفارق الكبير بين الجنة والنار فقال ﴿مثَلُ الجنة التي وُعد المتقون﴾ أي صفة الجنة الغريبة العجيبة الشأن ، التي وعد الله بها عباده الأبرار وأعدَّها للمتقين الأخيار ﴿فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ﴾ أي فيها أنهار جاريات من ماءٍ غير متغير الرائحة قال ابن مسعود : أنهار الجنة تفجَّر من جبلٍ من مسكٍ[1] ﴿وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّر طعْمُه﴾ أي وأنهار جاريات من حليبٍ في غاية البياض والحلاوة والدسامة ، لم يحمض بطول المقام ولم يفسد كما تفسد ألبان الدنيا وفي حديث مرفوع (لم يخرج من ضروع الماشية)[2] ﴿وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين﴾ أي وأنهار جاريات من خمرٍ لذيذة الطعم يتلذذ بها الشاربون لأنه ﴿لا فيها غولٌ ولا هم عنها يُنزفون﴾ وإنما قيَّدها بأنها لذة للشاربين ، لأن الخمر كريهة الطعم في الدنيا لا يلتذ بها إلاّ فاسد المزاج ، وأما خمر الآخرة فهي طيبة الطعم والرائحة ، يشربها أهل الجنة لمجرد الالتذاذ ﴿وأنهارٌ من عسلٍ مُصفَّى﴾ أي وأنهارٌ جارياتٌ من عسل في غاية الصفاء وحسن اللون والريح ، لم يخرج من بطون النحل قال أبو السعود : ﴿عسلٍ مصفَّى﴾ أي لم يخالطه الشمع وفضلات النحل[3] ﴿ولهم فيها من كل الثمراتِ﴾ أي ولهم في الجنة أنواعٌ متعددة من جميع أصناف الفواكه والثمار قال في حاشية البيضاوي : وفي ذكر الثمرات بعد المشروب إشارة إلى أنَّ مأكول أهل الجنة للَّذة لا للحاجة[4] ﴿ومغفرةٌ من ربهم﴾ أي ولهم فوق ذلك النعيم الحسن نعيمٌ روحي وهو المغفرة من الله مع الرحمة والرضوان وفي الحديث (أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) قال الصاوي : في الجنة ترفع عنهم التكاليف فيما يأكلونه ويشربونه ، بخلاف الدنيا فإن مأكولها ومشروبها يترتب عليه الحساب والعقاب ، ونعيم الآخرة لا حساب عليه ولا عقاب فيه[5] ﴿كمنْ هُو خالدٌ في النّار﴾ أي كمن هو مخلَّدٌ في الجحيم ؟ والاستفهام للإنكار أي لا يستوي من هو في ذلك النعيم المقيم ، بمن هو خالد في الجحيم ؟ ﴿وسُقُوا ماءً حميماً فقطَّع أمْعاءهُم﴾ أي وسُقوا مكان تلك الأشربة ماءً حاراً شديد الغليان ، فقطَّع أحشاءهم من فرط حرارته ؟ قال المفسرون : بلغ الماء الغاية في الحرارة ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رءوسهم . فإذا شربوه قطَّع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم[6] ولما بيَّن تعالى حال الكافرين ، ذكر حال المنافقين فقال : ﴿ومِنهم مَنْ يستْمع إليكَ﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين جماعة يستمعون إلى حديثك يا

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٣٢ . (٢) نفس المرجع السابق والصفحة . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٧٤ .
(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣٤٨ . (٥) حاشية الصاوي ٤/ ٨٤ . (٦) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٣٧ .

﴿ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

محمد ﴿حتى إذا خرجوا من عندك﴾ أي حتى إذا خرجوا من مجلسك ﴿قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً﴾ أي قالوا لعلماء الصحابة ـ كابن عباس وابن مسعود ـ ماذا قال محمدٌ قريباً في تلك الساعة ؟ قال ابن كثير : أخبر تعالى عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ، فلا يفهمون منه شيئاً ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لأهل العلم من الصحابة : ماذا قال محمد ﴿آنفاً﴾ أي الساعة ، لا يعقلون ما قال ولا يكترثون به[1] ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ أي ختم على قلوبهم بالكفر ﴿واتَّبعوا أهواءهم﴾ أي ساروا وراء أهوائهم الباطلة ﴿والذين اهتدوا زادهم هُدى وآتاهم تقواهم﴾ أي وأما المؤمنون المتقون فقد زادهم الله هدى وألهمهم رشدهم قال الإمام الفخر : لما بيَّن تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع ، ويستعيد ولا يستفيد ، بيَّن أن حال المؤمن المهتدي بخلافه ، فإنه يستمع فيفهم ،ويعمل بما يعلم ، وفيه فائدة وهو قطع عذر المنافق ، فإنه لو قال ما فهمت كلامه لغموضه ، يُردُّ عليه بأن المؤمن فهم واستنبط ، فذلك لعماء القلوب لا لخفاء المطلوب[2] ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتةً﴾ أي فهل ينتظرون إلا قيام الساعة فجأةً فتبغتهم وهم سادرون غارون غافلون ؟ ﴿فقد جاء أشراطُها﴾ أي فقد جاءت أماراتها وعلاماتها ، ومنها بعثة خاتم الرسل ﷺ ﴿فأنَّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة ، حيث لا ينفع ندم ولا توبة ؟ ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ أي فدم يا محمد على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ أي اطلب من الله المغفرة لك وللمؤمنين والمؤمنات ﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ أي يعلم تصرفكم في الدنيا ، ومصيركم في الآخرة ، فأعدوا الزاد ليوم المعاد .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نُزلت سورة. . إلى . . ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ من آية (٢٠) إلى آية (٣٨) نهاية السورة .

المناسبة : كان بدء السورة في الحديث عن الكافرين ، ثم جاء عن المؤمنين ، وهنا يأتي الحديث عن المنافقين ، وقد استغرق الجانب الأكبر من السورة باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين ، والآيات الكريمة تتحدث عن الجهاد وعن موقف المنافقين منه .

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٣٣ . (٢) التفسير الكبير ٢٨/ ٥٨ .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

اللغَــة : ﴿سوَّل﴾ زيَّن وسهَّل ﴿أضغانهم﴾ أحقادهم الدفينة قال **الجوهري** : الضغنُ والضغينة : الحقد ، وتضاغن القوم أبطنوا على الأحقاد[1] ﴿سيماهم﴾ علامتهم ﴿السَّلْم﴾ الصلح والموادعة ﴿يُحفكُم﴾ يلحُّ عليكم يقال : أحفى بالمسألة وألحف وألحَّ بمعنى واحد ﴿يَتِركم﴾ ينقصكم يقال : وتره حقه أي نقصه .

التفسِيْر : ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلت سُورة﴾ أي ويقول المؤمنون المخلصون شوقاً إلى الجهاد وحرصاً على ثوابه : هلاَّ أنزلت سورة فيها الأمر بالجهاد ﴿فإذا أنزلتْ سُورةٌ محُكمةٌ وذُكر فيها القِتال﴾ أي فإذا أنزلت سورة صريحةٌ ظاهرة الدلالة على الأمر بالقتال قال **القرطبي** : ﴿محكمة﴾ أي لم تنسخ وقد قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة ، وهي أشد القرآن على المنافقين[2] ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض﴾ أي رأيت المنافقين الذين في قلوبهم شك ونفاق ﴿ينظرون إليكَ نظر المغشي عليه من الموتِ﴾ أي ينظرون إليك يا محمد تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً ، كما ينظر من أصابته الغشية من حلول الموت ﴿فأوْلى لهُم﴾ أي فويلٌ لهم قال في **التسهيل** : وهي كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم كقوله تعالى ﴿أوْلى لكَ فأوْلى﴾[3] ﴿طاعةٌ وقولٌ معروفٌ﴾ مبتدأٌ محذوف الخبر أي طاعةٌ لك يا محمد ، وقولٌ جميلٌ طيبٌ خيرٌ لهم وأفضل وأحسن ، قال **الرازي** : وهو كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره خيرٌ لهم أي أحسن وأمثل ، وإنما جاز الابتداء بالنكرة لأنها موصوفة ويدل عليه قوله ﴿وقولٌ معروف﴾ كأنه قال : طاعة مخلصة ، وقولٌ معروفٌ خيرٌ لهم[4] ﴿فإذا عزم الأمرُ﴾ أي فإذا جدَّ الجِدُّ وفُرض القتال ﴿فلو صدَقوا اللهَ لكان خيراً لهم﴾ أي فلو أخلصوا نياتهم وجاهدوا بصدقٍ ويقين لكان ذلك خيراً لهم من التقاعس والعصيان ، والجملةُ جواب الشرط ﴿فهل عسيْتُم إنْ تولَّيتم أنْ تُفسدوا في الأرضِ وتُقطِّعوا أرحامكُم﴾ أي فلعلَّكم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية ، من الإفساد في الأرض بالمعاصي ، وقطع الأرحام !! قال قتادة : كيف رأيتم القوم حين تولَّوا عن كتاب الله ، ألم يسفكوا الدم الحرام ، ويقطعوا الأرحام ، ويعصوا الرحمن ؟ ! قال **أبو حيان** : يريد ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول ﷺ[5] ﴿أولئك الذين لعنهُم اللَّهُ﴾ أي طردهم

(١) الصحاح للجوهري مادة ضغن . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٤٣ .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٩ وذهب بعض المفسرين الى أن معنى ﴿فأولى لهم﴾ أي أحقُّ وأجدر بهم وخيره ﴿طاعة وقولٌ معروف﴾ وما ذكرناه أظهر وهو اختيار القرطبي . (٤) التفسير الكبير ٢٨/ ٦٢ . (٥) البحر المحيط ٨/ ٨٢ .

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

وأبعدهم من رحمته ﴿فأصمَّهم وأعمى أبْصارهم﴾ أي فأصمهم عن استماع الحق ، وأعمى قلوبهم عن طريق الهدى فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد **قال القرطبي** : أخبر تعالى أن من فعل ذلك حقت عليه اللعنة ، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره ، حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه ، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل[١] ﴿أفلا يتدبَّرون القرآن﴾ ؟ الاستفهام توبيخي أي أفلا يتفهمون القرآن ويتصفحونه ليروا ما فيه من المواعظ والزواجر ، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات ! ؟ ﴿أمْ على قُلوبٍ أقْفالُها﴾ « أم » بمعنى « بل » وهو انتقالٌ من توبيخهم على عدم التدبر إلى توبيخهم على ظلمة القلوب وقسوتها حتى لا تقبل التفكر والتدبر **والمعنى** : بل قلوبهم قاسية مظلمة كأنها مكبَّلة بالأقفال الحديدية فلا ينفذ إليها نور ولا إيمان **قال الرازي** : إن القلب خُلِق للمعرفة فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه غير موجود ، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي : هذا ليس بإنسان هذا وحش ، وهذا ليس بقلب هذا حجر[٢] ﴿إنَّ الذينَ ارْتدُّوا على أدْبارهم من بعدِ ما تبيَّن لهم الهُدى﴾ أي رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان ، وبعد أن وضح لهم طريق الهدى بالدلائل الظاهرة والمعجزات الواضحة ﴿الشَّيطانُ سوَّل لهم وأمْلى لهم﴾ أي الشيطان زيَّن لهم ذلك الأمر ، وغرَّهم وخدعهم بالأمل ، وطول الأجل ﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرِهُوا ما نزَّل اللهُ﴾ أي ذلك الإضلال بسبب أنهم قالوا لليهود الذين كرهوا القرآن الذي نزَّله الله حسداً وبغياً ﴿سنطيعكم في بعض الأمر﴾ أي سنطيعكم في بعض ما تأمروننا به كالقعود عن الجهاد ، وتثبيط المسلمين عنه وغير ذلك ﴿واللهُ يعْلم إسرْارهم﴾ أي وهو جل وعلا يعلم خفاياهم ، وما يبطنونه من الكيد والدسّ والتآمر على الإسلام والمسلمين **قال المفسرون** : قال المنافقون لليهود ذلك سراً فأظهره الله تعالى وفضحهم ﴿فكيف إذا توفتْهُم الملائكةُ يضربون وجُوههمْ وأدبارهمْ﴾ أي فكيف يكون حالهم حين تحضرهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم ومعهم مقامع من حديد يضربون بها وجوههم وظهورهم ؟ **قال القرطبي** : والمعنى على التخويف والتهديد أي إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر[٣] **قال ابن عباس** : لا يُتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره[٤] ﴿ذلكَ بأنهم اتَّبعوا ما أسخطَ اللهَ وكرهوا رضوانه﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم سلكوا طريق النفاق وكرهوا ما يرضي الله من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات ﴿فأحبطَ أعمالهم﴾ أي أبطل ما عملوه حال إيمانهم

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٤٦ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٨/ ٦٦ .
(٣) القرطبي ١٦/ ٢٥٠ . (٤) البحر المحيط ٨/ ٨٤ .

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾

من أعمال البر ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرضٌ أن لن يُخرج الله أضغانهم﴾ ؟ أي أيعتقد المنافقون الذين في قلوبهم شك ونفاق أن الله لن يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ؟ وأنه لن يظهر بغضهم وأحقادهم على الإِسلام والمسلمين ؟ لا بدَّ أن يفضحهم ويكشف أمرهم ﴿ولو نشاءُ لأريناكهم فلعرفْتهم بسيماهم﴾ أي لو أردنا لأريناك يا محمد أشخاصهم فعرفتهم عياناً بعلامتهم ولكنَّ الله ستر عليهم إبقاءً عليهم وعلى أقاربهم من المسلمين لعلهم يتوبون ﴿ولتعرفنَّهم في لحْن القوْل﴾ أي ولتعرفنَّ يا محمد المنافقين من فحوى كلامهم وأسلوبه ، فيما يعرضونه بك من القول الذي ظاهره إيمان وإسلام وباطنه كفر ومسبَّة قال **الكلبي** : لم يتكلم بعد نزولها عند النبيﷺ منافقٌ إلا عرفه[1] ﴿واللهُ يعلم أعمالكم﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بحسب قصدكم ، ففيه وعدٌ ووعيد ﴿ولنبْلونَّكم حتَّى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين﴾ أي ولنختبرنَّكم أيها الناسُ بالجهاد وغيره من التكاليف الشاقة حتى نعلم - علم ظهور - المجاهدين في سبيل الله ، والصابرين على مشاقّ الجهاد ﴿ونبْلُوا أخْباركم﴾ أي ونختبر أعمالكم حسنها وقبيحها **قال في التسهيل** : المراد بقوله ﴿حتى نعلم﴾ أي نعلمه علماً ظاهراً في الوجود تقوم به الحجة عليكم ، وقد علم الله الأشياء قبل كونها ، ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده بما يصدر منهم ، وكان **الفضيل بن عياض** إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبتلنا فإنك إذا ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستارنا[2] ﴿إن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل اللَّه﴾ أي جحدوا بآيات الله ومنعوا الناس عن الدخول في الإِسلام ﴿وشاقُّوا الرسولَ من بعد ما تبيَّن لهم الهُدى﴾ أي عادوا الرسول وخرجوا عن طاعته من بعد ما ظهر لهم صدقُه وأنه رسول الله بالحجج والآيات ﴿لنْ يضُرُّوا اللَّهَ شيئاً وسيُحبط أعمالهم﴾ أي لن يضروا الله بكفرهم وصدِّهم شيئاً من الضرر ، وسيبطل أعمالهم من صدقة ونحوها فلا يرون لها في الآخرة ثواباً ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللَّهَ وأطيعوا الرسول﴾ أي امتثلوا أوامر الله وأوامر رسوله ﴿ولا تُبْطلُوا أعْمالكم﴾ أي ولا تُبطلوا أعمالكم بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق ، والعُجب والرياء ﴿إنَّ الذينَ كفروا وصدُّوا عن سبيل الله﴾ أي جحدوا بآيات الله وصدُّوا الناس عن طريق الهدى والإيمان ﴿ثم ماتوا وهم كفارٌ﴾ أي وماتوا على الكفر ﴿فلن يغْفر اللَّه لهم﴾ أي فلن يغفر الله

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٥٣ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٥٠ .

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا

لهم بحالٍ من الأحوال ، وهذا قطع بأن من مات على الكفر لا يغفر اللهُ له لقوله تعالى ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به﴾ قال أبو السعود : وهذا حكم يعم كل من مات على الكفر ، وإن صحَّ نزوله في أصحاب القليب[1] ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلم﴾ أي فلا تضعفوا وتدعوا إلى المهادنة والصلح مع الكفار إذا لقيتموهم ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي وأنتم الأعزة الغالبون لأنكم مؤمنون ﴿واللهُ معكم﴾ أي والله معكم بالعونِ والنصر ﴿ولن يَتِركُمْ أعمالكم﴾ أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم قال ابن كثير : وفي قوله ﴿واللهُ معكم﴾ بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء[2] ﴿إنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ﴾ أي ما الحياة الدنيا إلا زائلة فانية ،لا قرار لها ولا ثبات ،كاللعب واللهو الذي يتلهى به الأولاد قال شيخ زاده : بيَّن تعالى أن الدنيا وما فيها من الحظوظ العاجلة ، لا يصلح مانعاً من الإقدام إلى الجهاد ، وما يؤدي إلى ثواب الآخرة ، لكونها بمنزلة اللهو واللعب في سرعة زوالها ، وأن الآخرة هي الحياة الباقية ، فلا ينبغي أن يكون حبُّ الدنيا والحرص على ما فيها من اللذات والشهوات سبباً للجبن عن الغزو والتخلف عن الجهاد[3] ﴿وإن تُؤمنوا وتتَّقوا يؤتكم أجوركم﴾ أي وإن تؤمنوا بالله وتتقوه حقَّ تقواه ، يعطكم ثواب أعمالكم كاملاً ﴿ولا يسألكم أموالكم﴾ أي ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم ، بل الزكاة المفروضة فيها قال ابن كثير : أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً ، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساةً لإخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك وثوابه عليكم[4] ﴿إن يسألكموها فيُحفكم تبْخلوا﴾ أي إن يسألكم جميع أموالكم ويبالغ في طلبها ، ويلح عليكم في إنفاقها تبخلوا ﴿ويُخرج أضغانكم﴾ أي ويخرج ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق قال في التسهيل : وذلك لأن الإنسان جُبل على محبة الأموال ، ومن نُوزِع في حبيبه ظهرت سرائره ، فمن رحمته تعالى على عباده عدم التشديد عليهم في التكاليف[5] ﴿ها أنتُم هؤلاء تُدعون لتُنفِقوا في سبيلِ اللَّه﴾ أي ها أنتم معشر المخاطبين تُدعون للإنفاق في سبيل الله ، وقد كلفتم ما تطيقون ﴿فمنكم منْ يَبخل﴾ أي فمنكم من يشح عن الإنفاق ويمسك عنه ﴿ومنْ يبْخل فإنما يبخَلُ عن نفسه﴾ أي ومن بخل عن الإنفاق في سبيل الله فإنما يعود ضرر بخله على نفسه ، لأنه يمنعها الأجر والثواب قال الصاوي : وبخل يتعدى بـ « على » إذا ضُمِّن معنى شحَّ ، وبـ « عن » إذا ضُمِّن معنى أمسك[6] ﴿والله الغنيُّ وأنتم الفقراءُ﴾ أي واللهُ مستغن عن إنفاقكم ليس بمحتاج إلى أموالكم ،

(١) أبو السعود ٥/ ٧٨ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٣٨ . (٣) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣٥٢ .
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٣٨ . (٥) التسهيل ٤/ ٥٠ . (٦) حاشية الصاوي ٤/ ٨٩ .

أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

وأنتم محتاجون إليه ﴿وإن تتولـوا يستبـدلْ قومـاً غيركـم﴾ أي وإن تعرضوا عن طاعته واتباع أوامره ، يخلف مكانكم قوماً آخرين يكونون أطوع لله منكم ﴿ثـم لا يكونـوا أمثالكـم﴾ أي لا يكونون مثلكم في البخل عن الإنفاق بل يكونوا كرماء أسخياء .

البَــلاَغَــة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ المقابلة بين الآية الأولى والثانية ﴿الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله أضلَّ أعمالهم﴾ وبين ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات . . ﴾ الآية وهو من المحسنات البديعية .

٢ ـ ذكر الخاص بعد العام ﴿وآمنوا بما نُزِّل على محمد﴾ والنكتة تعظيمه والاعتناء بشأنه .

٣ ـ الاستعارة التبعية ﴿تضع الحرب أوزارها﴾ شبَّه ترك القتال بوضع آلته ، واشتق من الوضع « تضع » بمعنى تنتهي وتترك بطريق الاستعارة التبعية .

٤ ـ المجاز المرسل ﴿ويثبت أقدامكم﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي يثبتكم ، وعبَّر بالأقدام لأن الثبات والتزلزل يظهران فيها وهو مثل ﴿بما كسبت أيديكم﴾ .

٥ ـ الطباق بين ﴿مناً . . وفداءً﴾ وبين ﴿آمنوا . . وكفروا﴾ وبين ﴿الغني . . والفقراء﴾ .

٦ ـ المجاز العقلي ﴿فإذا عزم الأمر﴾ نسب العزم إلى الأمر وهو لأهله مثل نهاره صائم .

٧ ـ الالتفات ﴿فهل عسيتم إن توليتم﴾ وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع .

٩ ـ الاستعارة التصريحية ﴿أم على قلوبٍ أقفالها﴾ شبَّه قلوبهم بالأبواب المقفلة ، فإنها لا تنفتح لوعظ واعظ ، ولا يفيد فيها عذل عاذل ، وهي من لطائف الاستعارات .

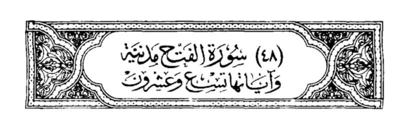
١٠ ـ الإطناب بتكرار ذكر الأنهار ﴿فيها أنهار من ماءٍ غير آسن ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذةٍ للشاربين . . ﴾ الآية وذلك لزيادة التشويق إلى نعيم الجنة .

١١ ـ الكناية ﴿ارتدوا على أدبارهم﴾ كناية عن الكفر بعد الإيمان .

١٢ ـ السجع الرصين غير المتكلف ﴿أضلَّ أعمالهم . واتبعوا أهواءهم . وأعمى أبصارهم﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة محمد »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* هذه السورة الكريمة مدنية ، وهي تُعنى بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات ، والعبادات ،والأخلاق،والتوجيه .

* تحدثت السورة الكريمة عن « صلح الحديبية » الذي تمَّ بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ستٍ من الهجرة ، والذي كان بدايةً للفتح الأعظم « فتح مكة » وبه تمَّ العزُّ والنصر والتمكين للمؤمنين ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ﴿إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً . .﴾ الآيات .

* وتحدثت السورة عن جهاد المؤمنين ، وعن « بيعة الرضوان » التي بايع فيها الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ على الجهاد في سبيل الله حتى الموت ، وكانت بيعةً جليلة الشأن ولذلك باركها الله ، ورضي عن أصحابها ، وسجلها في كتابه العظيم في سطور من نور ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة . .﴾ الآية .

* وتحدثت عن الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ من الأعراب الذين في قلوبهم مرض ، ومن المنافقين الذين ظنوا الظنون السيئة برسول الله ﷺ وبالمؤمنين فلم يخرجوا معهم ، فجاءت الآيات تفضحهم وتكشف سرائرهم ﴿سيقول لك المخلَّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا . .﴾ الآيات .

* وتحدثت السورة عن الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ في منامه ـ في المدينة المنورة ـ وحدَّث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا ، وهي دخول الرسول ﷺ والمسلمين مكة آمنين مطمئنين ، وقد تحققت تلك الرؤيا الصادقة فدخلها المؤمنون معتمرين مع الأمن والطمأنينة ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصِّرين . .﴾ .

* وختمت السورة الكريمة بالثناء على الرسول ﷺ وأصحابه الأطهار الأخيار ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . .﴾ الآية .

التسمية : سميت سورة الفتح لأن الله تعالى بشَّر المؤمنين بالفتح المبين ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . .﴾ الآيات .

فضلها : نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية ، ولما نزلت هذه السورة قال صلوات الله عليه : (لقد أُنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحبُّ إلي من الدنيا وما فيها) ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ أخرجه الإمام أحمد .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً . . إلى . . ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٧) .

اللغة : ﴿السكينة﴾ السكونُ والطمأنينة والثباتُ ﴿السَّوء﴾ المساءة والحزن والألم قال الجوهري : ساءَه سوءاً بالفتح ومساءةً نقيضُ سرَّه ، والإسمُ السُّوءُ بالضم ، ودائرة السُّوء يعني الهزيمة والشر ، ومن فتح فهو من المساءة[1] ﴿تعزّروه﴾ تعظّموه وتنصروه وتمنعوا الأذى عنه ، وسمي التعزيرُ في الحدود تعزيراً لأنه مانع من فعل القبيح ﴿نكث﴾ نقض البيعة والعهد ﴿بوراً﴾ هلكى قال الجوهري : البورُ : الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه ، و« قوماً بوراً » جمع بائر ، وبار فلان أي هلك[2] ﴿حرج﴾ إثم وذنب .

سبب النزول : عن ابن عباس قال : تخلف عن رسول الله ﷺ أعراب المدينة حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان استنفرهم معه حذراً من قريش ، وأحرم بعمرةٍ وساق معه الهدي ليعلم الناسُ أنه لا يريد حرباً ، فتثاقلوا عنه واعتلُّوا بالشغل فنزلت ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . .﴾ الآية[3] .

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا

التفسير : ﴿إنّا فتحْنا لكَ فتْحاً مُبيناً﴾ أي قد فتحنا لك يا محمد مكة فتحاً بيناً ظاهراً ، وحكمنا لك بالفتح المبين على أعدائك ، والمراد بالفتح فتح مكة ، وعده الله به قبل أن يكون ، وذكره بلفظ الماضي لتحققه ، وكانت بشارة عظيمة من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين قال الزمخشري : هو فتح مكة ، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية ، وهو وعدٌ له بالفتح ، وجيء به بلفظ الماضي على عادة ربِّ العزَّة سبحانه في أخباره ، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن الفتح ما لا يخفى[3] ﴿ليغفر لكَ اللهُ ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر﴾

(١) الصحاح للجوهري . (٢) نفس المرجع السابق . (٣) تفسير القرطبي ١٦/٢٦٨ (٣) الكشاف ٤/٢٦٢ وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفتح « صلح الحديبية » لما ترتب عليه من الآثار العظيمة ، من بيعة الرضوان ، ومن الصلح الذي عقده رسول الله مع قريش ، ومن دخول كثير في الإسلام ، إلى غير ما هنالك ، وإلى هذا ذهب ابن كثير .

مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ

أي ليغفر لك ربك يا محمد جميع ما فرط منك من ترك الأولى قال أبو السعود : وتسميتُه ذنباً بالنظر إلى منصبه الجليل[١] وقال ابن كثير : هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره ، وفيه تشريفٌ عظيم لرسول الله ﷺ إذ هو أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم في الدنيا والآخرة ، وهو في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، ولما كان أطوع خلق الله بشره الله بالفتح المبين ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[٢] ﴿ويُتمَّ نعمته عليك﴾ أي ويكمّل نعمته عليك بإعلاء الدين ورفع مناره ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ أي ويرشدك إلى الطريق القويم ، الموصل إلى جنات النعيم ؛ بما يشرعه لك من الدين العظيم ﴿وينصرَكَ اللهُ نصْراً عزيزاً﴾ أي وينصرك الله على أعدائك نصراً قوياً منيعاً ، فيه عزةٌ وغلبة ، يجمع لك به بين عز الدنيا والآخرة ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ أي هو جل وعلا الذي جعل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ أي ليزدادوا يقيناً مع يقينهم ، وتصديقاً مع تصديقهم ، برسوخ العقيدة في القلوب ، والتوكل على علاّم الغيوب ﴿ولله جنودُ السمٰواتِ والأرض﴾ أي ولله - جلّت عظمته - كل جنود السموات والأرض ، من الملائكة والجن ، والحيوانات ، والصواعق المدمّرة ، والزلازل ، والخسف ، والغرق ، جنودٌ لا تُحصى ولا تُغلب ، يسلطها على من يشاء قال ابن كثير : ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالى شرع لعباده الجهاد ، لما له في ذلك من الحجة القاطعة والحكمة البالغة[٣] ولذلك قال ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي عليماً بأحوال خلقه ، حكيماً في تقديره وتدبيره قال المفسرون : أراد بإنزال السكينة في قلوب المؤمنين « أهل الحديبية » حين بايعوا رسول الله ﷺ على مناجزة الحرب مع أهل مكة ، بعد أن حصل لهم ما يزعج النفوس ويزيغ القلوب ، من صد الكفار لهم عن دخول مكة ، ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصود ، فلم يرجع منهم أحدٌ عن الإيمان ، بعد أن هاج الناس وماجوا ، وزلزلوا حتى جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ وقال : ألست نبيَّ الله حقاً ؟ قال : بلى ، قال : ألسنا على الحق وعدوُّنا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : فلم نعط الدنيَّة في ديننا إذن ؟ قال إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري[٤] . . الخ . ﴿ليُدخل المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ليدخلهم - على طاعتهم وجهادهم - حدائق وبساتين ناضرة ، تجري من تحتها أنهار الجنة ماكثين فيها أبداً ﴿ويكفّر عنهم سيئاتهم﴾ أي ويمحو عنهم خطاياهم وذنوبهم ﴿وكان ذلك

(١) أبو السعود ٥/ ٨٠ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٤٠ .
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٤١ . (٤) انظر تفصيل القصة في صحيح البخاري وفي سيرة ابن هشام .

ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا

عند الله فوزاً عظيماً﴾ أي وكان ذلك الإدخال في الجنات والتكفير عن السيئات ، فوزاً كبيراً وسعادةً لا مزيد عليها ، إذ ليس بعد نعيم الجنة نعيم ﴿ويُعذِّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ أي وليعذِّب الله أهل النفاق والإشراك ، وقدَّمهم على المشركين لأنهم أعظم خطراً وأشد ضرراً من الكفار المجاهرين بالكفر ﴿الظَّانينَ باللَّهِ ظنَّ السَّوْء﴾ أي الظانين بربهم أسوأ الظنون ، ظنوا أن الله تعالى لن ينصر رسوله والمؤمنين ، وأن المشركين يستأصلونهم جميعاً كما قال تعالى ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ قال القرطبي : ظنوا أن النبي ﷺ لا يرجع إلى المدينة ولا أحدٌ من أصحابه حين خرج إلى الحديبية[1] ﴿عليهم دائرةُ السَّوء﴾ دعاءٌ عليهم أي عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين من الهلاك والدمار ﴿وغضِبَ اللهُ عليهم ولعنهم﴾ أي سخط تعالى عليهم بكفرهم ونفاقهم ، وأبعدهم عن رحمته ﴿وأعدَّ لهم جهنَّم وساءت مصيراً﴾ أي وهيأ لهم في الآخرة ناراً مستعرة هي نار جهنم ، وساءت مرجعاً ومنقلباً لأهل النفاق والضلال ﴿وللَّهِ جنودُ السمواتِ والأرض﴾ تأكيد للانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين قال الرازي : كرر اللفظ لأن جنود الله قد يكون إنزالهم للرحمة ، وقد يكون للعذاب ، فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين وثانياً لبيان إنزال العذاب على الكافرين[2] ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي عزيزاً في ملكه وسلطانه ، حكيماً في صنعه وتدبيره قال الصاوي : ذكر هذه الآية أولاً في معرض الخلق والتدبير فذيَّلها بقوله ﴿عليماً حكيماً﴾ وذكرها ثانياً في معرض الانتقام فذيَّلها بقوله ﴿عزيزاً حكيماً﴾[3] وهو في منتهى الترتيب الحسن ، لأنه تعالى ينزل جنود الرحمة لنصرة المؤمنين ، وجنود العذاب لإهلاك الكافرين . . ثم امتن تعالى على رسوله الكريم بتشريفه بالرسالة ، وبعثه إلى كافة الخلق فقال ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ أي إنا أرسلناك يا محمد شاهداً على الخلق يوم القيامة ، ومبشراً للمؤمنين بالجنة ، ومنذراً للكافرين من عذاب النار ﴿لتُؤْمنوا باللَّهِ ورسولِه﴾ أي أرسلنا الرسول لتؤمنوا أيها الناس بربكم ورسولكم حقَّ الإيمان ، إيماناً عن اعتقاد ويقين ، لا يخالطه شك ولا ارتياب ﴿وتُعزِّروه﴾ أي تُفخموه وتُعظِّموه ﴿وتُوقِّروه﴾ أي تحترموا وتجلُّوا أمره مع التعظيم والتكريم ، والضمير فيهما للنبي ﷺ ﴿وتسبِّحوه بكرة وأصيلاً﴾ أي تسبحوا ربكم في الصباح والمساء[4] ، ليكون القلب متصلاً بالله في كل آن ، ثم قال تعالى ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون اللهَ﴾ أي إن الذين

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦٥ . (٢) التفسير الكبير ٢٨/ ٨٤ . (٣) حاشية الصاوي ٤/ ٩٢ . (٤) الضمير هنا عائد على الله تعالى وقيل إن الضمائر كلها راجعة على الله سبحانه وهو اختيار البيضاوي وأبي السعود ، وما ذكرناه منقول عن الضحاك وهو اختيار القرطبي .

يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ

يبايعونك يا محمد في الحديبية « بيعة الرضوان » إنما يبايعون في الحقيقة اللهَ ، وهذا تشريفٌ للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله ، لأن الرسول ﷺ سفيرٌ ومعبِّر عن الله **قال المفسرون** : المراد بالبيعة هنا بيعة الرضوان بالحديبية ، حين بايع الصحابة رسول الله ﷺ على الموت كما روى الشيخان عن سلمة ابن الأكوع أنه قال: « بايعنا رسول الله ﷺ على الموت » وسميت « بيعة الرضوان » لقول الله فيها ﴿لقد رضي اللهُ عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ ﴿يدُ اللهِ فوق أيديهم﴾ قال ابن كثير : أي هو تعالى حاضر معهم ، يسمع أقوالهم ، ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ [١] **وقال الزمخشري** : يريد أن يد رسول الله ﷺ التي تعلو أيدي المبايعين هي يدُ الله ، والمعنى أن من بايع الرسول فقد بايع الله كقوله تعالى ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[٢] ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ أي فمن نقض البيعة فإنما يعود ضرر نكثه عليه، لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب بنقضه العهد والميثاق الذي عاهد به ربه ﴿ومن أوْفى بما عاهد عليه اللّه﴾ أي ومنْ وفَّى بعهْده ﴿فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي فسيعطيه الله ثواباً جزيلاً ، وهو الجنة دار الأبرار ﴿سيقول لك المخلَّفون من الأعراب﴾ أي سيقول لك يا محمد المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج معك عام الحديبية من أعراب المدينة ﴿شغلَتْنا أمْوالُنا وأهْلونا فاستْغفر لنا﴾ أي شُغلنا عن الخروج معك بالأموال والأولاد ، فاطلب لنا من الله المغفرة ، لأن تخلفنا لم يكن باختيار بل عن اضطرار **قال في التسهيل** : سمّاهم تعالى بالمخلَّفين لأنهم تخلَّفوا عن غزوة الحديبية ، - والأعراب هم أهل البوادي من العرب - لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة يعتمر ، رأوا أنه يستقبل عدواً كثيراً من قريش وغيرهم فقعدوا عن الخروج معه ، ولم يكن إيمانهم متمكناً فظنوا أنه لا يرجع هو والمؤمنون من ذلك السفر ، ففضحهم الله في هذه السورة وأعلمَ تعالى رسولَه ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم ، وأعلمه أنهم كاذبون في اعتذارهم [٣] ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ أي يقولون خلاف ما يبطنون وهذا هو النفاق المحض ، فهم كاذبون في الاعتذار وطلب الاستغفار ، لأنهم قالوه رياءً من غير صدقٍ ولا توبة ﴿قل فمَنْ يمْلك لكم من اللّهِ شيئاً إنْ أراد بكم ضراً أوْ أراد بكم نفعاً﴾ ؟ أي قل لهم : مَن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ، إن أراد أن يُلحق بكم أمراً يضركم كالهزيمة، أو أمراً ينفعكم كالنصر والغنيمة ؟ **قال القرطبي** : وهذا ردٌ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضرَّ ، ويُعجل لهم النفع[٤] ﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم بل الله مطلع على ما في قلوبكم من

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٢ . (٢) الكشاف ٤/ ٢٦٥ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٥٢ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦٩ .

وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ

الكذب والنفاق، ثم أظهر تعالى ما يخفونه في نفوسهم فقال ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسولُ والمؤمنون **إلى أهليهم أبداً**﴾ أي بل ظننتم أيها المنافقون أن محمداً وأصحابه لن يرجعوا إلى المدينة أبداً ﴿**وزُيِّن ذلك في قلوبكم**﴾ أي وزُيِّن ذلك الضلال في قلوبكم ﴿**وظننتم ظنَّ السَّوء**﴾ أي ظننتم أنهم يُسْتأصلون بالقتل، ولا يرجع منهم أحد ﴿**وكُنتم قوماً بُوراً**﴾ أي وكنتم قوماً هالكين عند الله، مستوجبين لسخطه وعقابه ﴿**ومن لم يؤمن باللّهِ ورسوله**﴾ لما بيَّن حال المتخلفين عن رسول الله، وبيَّن حال ظنهم الفاسد، وأنه يفضي بصاحبه إلى الكفر، حرَّضهم على الإيمان والتوبة على سبيل العموم والمعنى من لم يؤمن بالله ورسوله بطريق الإخلاص والصدق ﴿**فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً**﴾ أي فإنَّا هيأنا للكافرين ناراً شديدة مستعرة، وهو وعيدٌ شديد للمنافقين ﴿**ولله ملك السمٰواتِ والأرض**﴾ أي له جل وعلا جميع ما في السموات والأرض، يتصرف في الكل كيف يشاء ﴿**يغفر لمن يشاءُ ويُعذِّب منْ يشاء**﴾ أي يرحم من يشاء من عباده ويُعذب من يشاء، وهذا قطع لطمعهم في استغفار رسول الله ﷺ لهم ﴿**وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿**سيقولُ المخلَّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها**﴾ أي سيقول الذين تخلَّفوا عن الخروج مع رسول الله في عمرة الحديبية، عند ذهابكم إلى مغانم خيبر لتحصلوا عليها ﴿**ذرونا نتَّبعكم**﴾ أي اتركونا نخرج معكم إلى خيبر لنقاتل معكم ﴿**يريدون أن يبدّلوا كلامَ اللّه**﴾ أي يريدون أن يُغيرّوا وعد الله الذي وعده لأهل الحديبية من جعل غنائم خيبر لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد قال **القرطبي** : إن الله تعالى جعل لأهل الحديبية غنائم خيبر عوضاً عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح[1] ﴿**قل لن تتَّبعونا**﴾ أي قل لهم لا تتبعونا فلن يكون لكم فيها نصيب ﴿**كذلكم قال الله من قبلُ**﴾ أي كذلكم حكم الله تعالى بأن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية، ليس لغيرهم فيها نصيب قبل رجوعنا منها ﴿**فسيقولون بل تحسدوننا**﴾ أي فسيقولون ليس هذا من الله بل هو حسد منكم لنا على مشاركتكم في الغنيمة، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿**بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً**﴾ أي لا يفهمون إلا فهماً قليلاً وهو حرصهم على الغنائم وأمور الدنيا ﴿**قل للمخلَّفين من الأعراب ستُدعون إلى قوم أولي**

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٧١ .

يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

بأسٍ شديـد﴾ أي قل لهؤلاء الذين تخلَّفوا عن الحديبية ـ كرَّر وصفهم بهذا الإسم إظهاراً لشناعته ومبالغةً في ذمهم ـ ستُدعون إلى حرب قوم أشداء ، هم بنو حنيفة ـ قوم مسيلمة الكذاب ـ أصحاب الردة **﴿تقاتلونهـم أو يُسلمـون﴾** أي إما أن تقتلوهم أو يدخلوا في دينكم بلا قتال **﴿فإن تطيعـوا يؤتكـم اللـهُ أجـراً حسنـاً﴾** أي فإن تستجيبوا وتخرجوا لقتالهم يعطكم الله الغنيمة والنصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة **﴿وإن تتولَّوا كمـا تولَّيتـم مـن قبـلُ يعذِّبكـم عذاباً أليمـاً﴾** أي وإن تتخلفوا عن الخروج كما تخلفتم زمن الحديبية ، يعذبكم اللهُ عذاباً شديداً مؤلماً في نار جهنم . . ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فقال **﴿ليسَ علـى الأعمى حـرجٌ ولا علـى الأعرج حرجٌ ولا على المريض حـرج﴾** أي ليس على هؤلاء إثم أو ذنب في ترك الخروج للجهاد لما بهم من الأعذار الظاهرة **﴿ومـن يطع اللّـهَ ورسوله يدخلـه جناتٍ تجـري من تحتهـا الأنهار﴾** أي من يطع أمر الله وأمر الرسول يدخله جنات النعيم خالداً فيها **﴿ومـن يتولَّ يعذبـه عذابـاً أليماً﴾** أي ومن ينكل عن الجهاد لغير عذر يعذبه الله عذاباً شديداً ، في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار .

* * *

قال الله تعالى : **﴿لقـد رضـي الله عـن المؤمنين إذ يبايعونـك تحت الشجـرة . . إلى . . مغفـرةً وأجـراً عظيمـاً﴾** من آية (١٨) إلى نهاية السورة آية (٢٩) .

المنَاسَبَة : لمَّا ذكر تعالى حال المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، ذكر تعالى حال المؤمنين المجاهدين الذين بايعوا الرسول « بيعة الرضوان » تسجيلاً لرضى الله تعالى عنهم ، وتخليداً لمآثرهم الكريمة ، وختم السورة الكريمة بالثناء على الصحابة الأبرار ، بأبلغ ثناء وأكرم تمجيد .

اللغَـة : **﴿أظفـركم﴾** أظهـركم وأعـلاكم ، ظفـر بالشيء غلـب عليه ، وأظفـره غلبـه[١] **﴿معكوفـاً﴾** محبوساً ومنه الاعتكاف **﴿معـرَّة﴾** المعرَّة : العيب والمشقة اللاصقة بالإنسان من العُـرِّ وهو الجرب **﴿تزيلوا﴾** تميَّزوا **﴿الحميَّة﴾** الأنفة والغضب الشديد **﴿ سيماهم ﴾** علامتهم **﴿ شطأه ﴾** الشطء : الفراخ قال الجوهري : شطءُ الزرع والنبات فراخُه والجمع أشطاء[٢] **﴿آزره﴾** قوَّاه وأعانه وشدَّه .

سَبَبُ النّزول : عن أنس رضي الله عنه أن ثمانين من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من التنعيم متسلحين يريدون الغدر به وبأصحابه فأخذناهم أسرى فأنزل الله تعالى **﴿وهو الذي كفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة . . ﴾** الآية[٣] .

(١) البحر ٨/ ٨٨ . (٢) الصحاح للجوهري . (٣) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٨٠ .

* ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾

التفسير : ﴿لقد رضيَ الله عن المؤمنينَ إذ يُبايعونك تحت الشجرة﴾ اللام موطئة لقسم محذوف أي والله لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوك يا محمد « بيعة الرضوان » تحت ظل الشجرة بالحديبية **قال المفسرون** : كان سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما بلغ الحديبية أرسل عثمان بن عفان إلى أهل مكة يخبرهم أنه إنما جاء معتمراً ، وأنه لا يريد حرباً ، فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم ، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل ، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة على أن يدخلوا مكة حرباً ، وبايعوه على الموت ، فكانت بيعة الرضوان ، فلما بلغ المشركين ذلك أخذهم الرعب وأطلقوا عثمان وطلبوا الصلح من رسول الله ﷺ على أن يأتي في العام القابل ، ويدخلها ويقيم فيها ثلاثة أيام ، وكانت هذه البيعة تحت شجرة سمرة بالحديبية وقد سميت « بيعة الرضوان » ولما رجع المسلمون يعلوهم الحزنُ والكآبة، أراد الله تسليتهم وإذهاب الحزن عنهم فأنزل هذه السورة على رسوله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ وكان عدد الذين بايعوا رسول الله ﷺ ألفاً وأربعمائة رجل ، وفيهم نزلت الآية الكريمة ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ ولم يتخلف عن البيعة إلا « الجد ابن قيس » من المنافقين ، وحضر هذه البيعة روح القدس جبريل الأمين ، ولهذا سُطرت في الكتاب المبين[1] ﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ أي فعلم تعالى ما في قلوبهم من الصدق والوفاء ، عند مبايعتهم لك على حرب الأعداء ﴿فأنزل السكينة عليهم﴾ أي رزقهم الطمأنينة وسكون النفس عند البيعة ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾ أي وجازاهم على بيعة الرضوان بفتح خيبر ، وما فيها من النصر والغنائم ، زيادةً على ثواب الآخرة ﴿ومغانم كثيرةً يأخذونها﴾ أي وجعل لهم الغنائم الكثيرة التي غنموها من خيبر قال ابن كثير : هو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العامِّ بفتح خيبر ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم ، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة[2] ، ولهذا قال تعالى ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي غالباً على أمره ، حكيماً في تدبيره وصنعه ، ولهذا نصركم عليهم وغنَّمكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴿وعدكم الله مغانم كثيرةً تأخذونها﴾ أي وعدكم الله معشر المؤمنين ـ على جهادكم وصبركم ـ الفتوحات الكثيرة ، والغنائم الوفيرة تأخذونها من أعدائكم ، قال ابن عباس : هي المغانم التي تكون إلى يوم القيامة[3] قال في البحر : ولقد اتَّسع نطاق الإسلام ، وفتح المسلمون فتوحاً لا تُحصى ، وغنموا مغانم لا تُعدُّ وذلك في شرق البلاد وغربها ، حتى في الهند والسودان ـ تصديقاً لوعده تعالى ـ وقدم علينا أحد ملوك غانة من بلاد التكرور ، وقد فتح أكثر من

(١) انظر تفصيل القصة في تفسير القرطبي ١٦/ ٢٧٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٤٥ . (٣) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٧٨ .

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

خمسة وعشرين مملكة من بلاد السودان ، وأسلموا معه وقدم علينا ببعض ملوكهم يحج معه[١] **﴿فعجَّل لكم هذه﴾** أي فعجَّل لكم غنائم خيبر بدون جهد وقتال **﴿وكفَّ أيدي الناس عنكم﴾** أي ومنع أيدي الناس أن تمتد إليكم بسوء قال المفسرون : المراد أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان ، حين جاءوا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب **﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾** أي ولتكون الغنائم ، وفتح مكة ، ودخول المسجد الحرام علامة واضحة تعرفون بها صدق الرسول فيما أخبركم به عن الله **﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾** أي ويهديكم تعالى إلى الطريق القويم ، الموصل الى جنات النعيم بجهادكم وإخلاصكم **قال الإمام الفخر** : والآية للإشارة إلى أنَّ ما أعطاهم من الفتح والمغانم ، ليس هو كل الثواب ، بل الجزاء أمامهم ، وإنما هي شيء عاجل عجَّله لهم لينتفعوا به ، ولتكون آية لمن بعدهم من المؤمنين، تدل على صدق وعد الله في وصول ما وعدهم به كما وصل إليكم[٢] **﴿وأخرى لم تقدروا عليها﴾** أي وغنيمةً أخرى يسَّرها لكم ، لم تكونوا بقدرتكم تستطيعون عليها ، ولكنَّ الله بفضله وكرمه فتحها لكم ، والمراد بها فتح مكة **﴿قد أحاط اللهُ بها﴾** أي قد استولى الله عليها بقدرته ووهبها لكم ، فهي كالشيء المحاط به من جوانبه محبوسٌ لكم لا يفوتكم **﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾** أي قادراً على كل شيء ، لا يعجزه شيء أبداً ، فهو القادر على نصرة أوليائه ، وهزم أعدائه **قال ابن كثير** : المعنى أي وغنيمةً أخرى وفتحاً آخر معيناً، لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسَّرها الله عليكم وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون والمرادُ بها في هذه الآية «فتح مكة» وهو اختيار الطبري[٣] **﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولَّوا الأدبار﴾** تذكيرٌ لهم بنعمةٍ أخرى أي ولو قاتلكم أهل مكة ولم يقع الصلح بينكم وبينهم ، لغلبوا وانهزموا أمامكم ولم يثبتوا **﴿ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾** أي ثم لا يجدون من يتولَّى أمرهم بالحفظ والرعاية ، ولا من ينصرهم من عذاب الله **﴿سنةَ اللَّهِ التي قد خلت من قبل﴾** أي تلك طريقة الله وعادتُه التي سنَّها فيمن مضى من الأمم ، من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين **قال في البحر** : أي سنَّ الله لأنبيائه ورسله سنة قديمة وهي قوله **﴿كتب اللهُ لأغلبنَّ أنا ورسلي﴾**[٤] **﴿ولن تجد لسنَّةِ اللَّهِ تبديلاً﴾** أي وسنته تعالى لا تتبدَّل ولا تتغيَّر **﴿وهو**

---

(١) التفسير الكبير ٢٨/ ٩٦ . (٢) ما ذكره ابن كثير هو الراجح وهو اختيار الطبري وأبي حيان ، وهو منقول عن قتادة والحسن ، ويؤيده أن الله تعالى قال ﴿لم تقدروا عليها﴾ وهذا يدل على تقدم محاولة لفتحها وهو منطبق على « فتح مكة » وقيل إن المراد : فتح فارس والروم ، وقيل هوازن في حنين ، وما ذكرناه أرجح .

(٣) البحر المحيط ٨/ ٩٧ . (٤) البحر المحيط ٨/ ٩٧ .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى﴾

الـذي كـفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهـم ببطـن مكة﴾ أي وهو تعالى بقدرته وتدبيره صرف أيدي كفار مكة عنكم كما صرف عنهم أيديكم بالحديبية التي هي قريبة من البلد الحرام **قال ابن كثير** : هذا امتنانٌ من الله تعالى على عباده المؤمنين ، حين كفَّ أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحـرام ، بل صان كلاً من الفريقـين وأوجـد بينهـم صلحاً ، فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة[1] **﴿مـن بعـد أن أظفـركـم عليهـم﴾** أي من بعد ما أخذتموهم أسارى وتمكنتم منهم **قال الجلال** : وذلك أن ثمانين من المشركين طافوا بعسـكر المؤمنـين ليصيبوا منهم ، فأُخذوا وأُتي بهم إلى رسول الله ﷺ فعفـا عنهـم وخلَّى سبيلهـم ، فكان ذلك سبب الصلح[2] **وقال في التسهيل** : وروي في سببها أن جماعةً من فتيان قريش خرجوا إلى الحديبية ، ليصيبوا من عسكر رسول الله ﷺ ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في جماعةٍ منَ المسلمين فهزموهم وأسروا منهم قوماً ، وساقوهم إلى رسول الله ﷺ فأطلقهم ، فكفُّ أيدي الكفار هو هزيمتهم وأسرهم ، وكفُّ أيدي المؤمنين عن الكفار هو إطلاقهم من الأسر وسلامتهم من القتل[3] **﴿وكان اللـه بمـا تعملـو ن بصيـراً﴾** أي هو تعالى بصير بأعمالكم وأحوالكم ، يعلم ما فيه مصلحة لكم ، ولذلك حجـزكم عن الكافرين رحمةً بكم ، وحرمةً لبيته العتيق لئلا تسفك فيه الدماء . . ثم ذكر تعالى استحقـاق المشركين للعذاب والدمار فقال **﴿هـم الذيـن كفـروا وصدُّوكـم عن المسجـد الحـرام﴾** أي هم كفار قريش المعتدون الذين كفروا بالله والرسول ، ومنعوا المؤمنين عن دخول المسجد الحرام لأداء مناسك العمرة عام الحديبية **﴿والهَـدي معكوفـاً أن يبلـغ محلَّـه﴾** أي وصدُّوا الهدي أيضاً ـ وهو ما يُهدى لبيت الله لفقـراء الحـرم ـ معكوفاً أي محبوساً عن أن يبلغ مكانه الذي يذبح فيه وهو الحرم **قال القرطبي** : يعني قريشاً منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية ، حين أحرم رسول الله ﷺ مع أصحابه بالعمرة ، ومنعوا الهدي وحبسوه عن أن يبلغ محله ، وهذا كانوا لا يعتقدونه ، ولكنه حملتهم الأنفة ودعتهم الحمية الجاهلية على أن يفعلوا ما لا يعتقدونه ديناً ، فوبخهـم الله على ذلك وتوعَّدهم عليه ، وأدخل الأنس على رسول الله ببيانه ووعده[4] **﴿ولـولا رجالٌ مؤمنـو ن ونسـاءٌ مؤمنـات﴾** أي ولـولا أن في مكة رجـالاً ونسـاءً من المؤمنـين المستضعفين ، الذين يخفون إيمانهـم خوفـاً من المشركين **﴿لـم تعلمـوهـم﴾** أي لا تعرفونهـم بأعيانهـم لاختلاطهم بالمشركين **﴿أن تطئوهـم فتصيبكم منهـم معـرَّة بغيـر علم﴾** أي كراهة أن توقعوا بهم وتقتلوا منهم دون علم منكم بإيمانهم ، فينالكم بقتلهم إثم وعيب وجواب « لولا » محذوفٌ تقديره : لأذن لكم في

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٤٦ . (٢) تفسير الجلالين ٤/ ٩٧ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٥٤ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٨٣ .

رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن

دخول مكة ، ولسلَّطكم على المشركين **قال الصاوي** : والجواب محذوف قدَّره الجلال بقوله : لأذِنَ لكم في الفتح ، ومعنى الآية : لولا كراهة أن تُهلكوا أناساً مؤمنين بين أظهر الكفار ، حال كونكم جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كفَّ أيديكم عنهم[١] ، ولأذن لكم في فتح مكة **﴿ليُدخلَ اللهُ في رحمته من يشاءُ﴾** أي إنما فعل ذلك ليخلّص المؤمنين من بين أظهر المشركين ، وليرجع كثيرٌ منهم إلى الإسلام **قال القرطبي** : أي لم يأذن الله لكم في قتال المشركين ، ليُسلم بعدالصلح من قضى أن يُسلم من أهل مكة ، وكذلك كان ، أسلم الكثير منهم وحسن إسلامُه ، ودخلوا في رحمته وجنته[٢] **﴿لوْ تزيَّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾** أي لو تفرقوا وتميَّز بعضهم عن بعض ، وانفصل المؤمنون عن الكفار ، لعذبنا الكافرين منهم أشدَّ العذاب ، بالقتل والسبي والتشريد من الأوطان **﴿إذْ جعل الذين كفروا في قُلوبهم الحميَّة﴾** أي حين دخل إلى قلوب الكفار الأنفة والكبرياء بالباطل ، فرفضوا أن يكتبوا في كتاب الصلح « بسم الله الرحمٰن الرحيم » ورفضوا أن يكتبوا « محمد رسولُ الله » وقولهم : لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ولكنْ اكتبْ اسمك واسم أبيك **﴿حميَّة الجاهلية﴾** أي أنفةً وغطرسةً وعصبيةً جاهلية **﴿فأنزل اللهُ سكينتَهُ على رسولِهِ وعلى المؤمنين﴾** أي جعل الطمأنينة والوقار في قلب الرسول والمؤمنين ، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين[٣] **﴿وألزمَهم كلمةَ التَّقوى﴾** أي اختار لهم كلمة التقوى - إلزام تكريم وتشريف - وهي كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » هذا قول الجمهور ، **والظاهر** : أن المراد بكلمة التقوى هي إخلاصهم وطاعتهم لله ورسوله ، وعدم شقّ عصا الطاعة عندما كُتبت بنود الصلح ، وكانت مجحفةً بحقوق المسلمين في الظاهر ، فثبَّت اللهُ المؤمنين على طاعة رسول الله ﷺ وكان في هذا الصلح كل الخير للمسلمين[٤] **﴿وكانوا أحقَّ بها وأهْلها﴾** أي وكانوا أحقَّ بهذه الفضيلة من كفار مكة ، لأن الله اختارهم لدينه وصحبة نبيه **﴿وكان الله بكل شيءٍ عليماً﴾** أي عالماً بمن هو أهل للفضل ، فيخصه بمزيد من الخير والتكريم . . ثم أخبر تعالى عن رؤيا رسول الله ﷺ في المنام - وهي رؤيا حق - لأنها جزء من الوحي فقال **﴿لقد صدَق اللهُ رسولَهُ الرؤيا بالحقّ﴾** اللام موطئة

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٩٨ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/٢٨٦ .

(٣) يقول سيد قطب رحمه الله في تفسيره الظلال ما نصه « وهذه الحميَّة انما هي حميةُ الكبر والفخر ، والبطر والتعنت ، الحمية الجاهلية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله ﷺ والمؤمنين ، يمنعونهم من المسجد الحرام ، ويحبسون الهدي الذي ساقوه أن يبلغ محله الذي ينحر فيه ، مخالفين بذلك كل عرفٍ وكل عقيدة ، كي لا تقول العرب : إن محمداً دخلها عليهم عنوة ، ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عرف ودين ، وينتهكون حرمة البيت الحرام الذي يعيشون على حساب قداسته ، وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في جاهلية ولا إسلام » . اهـ . الظلال ٢٦/١١٥ . (٤) هذا ما ألهمني الله إياه عند تفسير الآيات الكريمة من واقعة صلح الحديبية ولعله واضح لمن تمعن فيه .

شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ

للقسم ، و« قد » للتحقيق أي والله لقد جعل الله رؤيا رسوله صادقة محققة لم يدخلها الشيطان لأنها رؤيا حق **قال المفسرون** : كان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت ، ثم حلق بعضهم وقصَّر بعضهم ، فحدَّث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا ، فلما خرج إلى الحديبية مع الصحابة ، وصدَّه المشركون عن دخول مكة ، ووقع ما وقع من قضية الصلح ، ارتاب المنافقون وقالوا : واللهِ ما حلقنا ولا قصَّرنا ولا رأينا البيت ، فأين هي الرؤيا ؟ ووقع في نفوس بعض المسلمين شيء فنزلت الآية **﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقِّ﴾** فأعلم تعالى أن رؤيا رسوله حقٌّ ، وأنه لم يكذب فيما رأى ، ولكنه ليس في الرؤيا أنه يدخلها عام ستٍ من الهجرة ، وإنما أراه مجرد صورة الدخول ، وقد حقق الله له ذلك بعد عام فذلك قوله تعالى **﴿ لتدخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء اللهُ﴾** أي لتدخلن يا محمد أنت وأصحابك المسجد الحرام بمشيئة الله **﴿آمنين محلِّقين رءوسكم ومقصّرين﴾** أي تدخلونها آمنين من العدو ، تؤدون مناسك العمرة ثم يحلق بعضكم رأسه ، ويقصِّر بعض **﴿لا تخَافون﴾** أي غير خائفين ، وليس فيه تكرارٌ لان المراد آمنين وقت دخولكم ، وحال المكث ، وحال الخروج **﴿فعلم ما لم تعْلموا﴾** أي فعلم تعالى ما في الصلح من الحكمة والخير والمصلحة لكم ما لم تعلموه أنتم **قال ابن جزي** : يريد ما قدَّره تعالى من ظهور الإسلام في تلك المدة ، فإنه لما انعقد الصلح وارتفعت الحرب ، رغب الناس في الإسلام ، فكان رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية في ألف وأربعمائة ، وغزا « غزوة الفتح » بعدها بعامين ومعه عشرة آلاف[1] **﴿فجعل مِنْ دونِ ذلك فتحاً قريباً﴾** أي فجعل قبل ذلك فتحاً عاجلاً لكم وهو «صلح الحديبية» وسُمي فتحاً لما ترتَّب عليه من الآثار الجليلة ، والعواقب الحميدة ، ولهذا روى البخاري عن البراء رضي الله عنه : « تعدُّون أنتم الفتح « فتح مكة » وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعدُّ الفتح « بيعة الرضوان » يوم الحديبية . . »[2] الحديث **﴿هُو الَّذي أرسل رسُولهُ بالهدى ودينِ الحقِّ﴾** أي هو جل وعلا الذي أرسلِ محمداً بالهداية التامة الشاملة الكاملة ، والدين الحق المستقيم دين الإسلام **﴿ليُظهره على الدين كلِّه﴾** أي ليعليه على جميع الأديان ، ويرفعه على سائر الشرائع السماوية **﴿وكفى باللَّهِ شهيداً﴾** أي وكفى بالله شاهداً على أن محمداً رسوله . . ثم أثنى تعالى على أصحاب رسول الله بالثناء العاطر ، وشهد لرسوله بصدق الرسالة فقال **﴿محمدٌ رسولُ اللَّهِ﴾** أي هذا الرسول المسمَّى محمداً هو رسولُ الله حقاً لا كما يقول المشركون **﴿والذين معه أشداءُ**

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٥٦ . (٢) الحديث أخرجه البخاري وتتمته « كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئرٌ فنزحناها فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناءٍ من ماءٍ ، فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها ، فتركناها غير بعيد ثم انها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا » .

وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

على الكفار رحماءُ بينهم﴾ أي وأصحابه الأبرار الأخيار غلاظٌ على الكفار متراحمون فيما بينهم كقوله تعالى **﴿أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين﴾ قال أبو السعود** : أي يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة[1] **قال المفسرون** : وذلك لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم **﴿وليجدوا فيكم غِلظة﴾** وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمس أبدانهم ، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه في الدين صافحه وعانقه **﴿تراهم رُكَّعاً سُجَّداً﴾** أي تراهم أيها السامع راكعين ساجدين من كثرة صلاتهم وعبادتهم ، رهبانٌ بالليل أسودٌ بالنهار **﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾** أي يطلبون بعبادتهم رحمة الله ورضوانه **قال ابن كثير** : وصفهم بكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالإِخلاص لله عز وجل والاحتساب عنده بجزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ورضاه[2] **﴿سيماهم في وجُوههم من أثر السُّجود﴾** أي علامتهم وسمتُهم كائنة في جباههم من كثرة السجود والصلاة **قال القرطبي** : لاحت في وجوههم علامات التهجد بالليل وأمارات السهر ، **قال ابن جريج** : هو الوقار والبهاء ، **وقال مجاهد** : هو الخشوع والتواضع ، قال منصور سألت مجاهداً عن قوله تعالى **﴿سيماهم في وجوههم﴾** أهو أثرٌ يكون بين عيني الرجل ؟ قال : لا ، ربما يكون بين عيني الرجل مثل ركبة العنز وهو أقسى قلباً من الحجارة ، ولكنه نورٌ في وجوههم من الخشوع[3] **﴿ذلك مثلُهم في التوراة﴾** أي ذلك وصفهم في التوراة : الشدة على الكفار ، والرحمة بالمؤمنين ، وكثرة الصلاة والسجود **﴿ومثلهم في الإنجيل كزرْع أخرجَ شطْأه﴾** أي ومثلهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج فراخه وفروعه **﴿فآزره فاستغلظ﴾** أي فقوّاه حتى صار غليظاً **﴿فاستوى على سُوقه﴾** أي فقام الزرع واستقام على أصوله **﴿يُعجب الزُرَّاع ليغيظ بهم الكفار﴾** أي يعجب هذا الزرع الزراع ، بقوته وكثافته وحسن منظره ، ليغتاظ بهم الكفار **قال الضحّاك** : هذا مثل في غاية البيان ، **فالزرع محمد** ﷺ ، **والشطءُ** أصحابُه ، كانوا قليلاً فكثروا ، وضعفاء فقووا ، **وقال القرطبي** : وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ، فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدعوة ضعيفاً ، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ نباته ، وأفراخه ، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان **﴿وعد اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾** أي وعدهم تعالى بالآخرة بالمغفرة التامة والأجر العظيم والرزق الكريم في

---

(١) أبو السعود ٥/ ٨٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٥٥ . (٣) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٩٣ . (٣) القرطبي ١٦/ ٢٩٥ .

جنات النعيم ، اللهم ارزقنا محبتهم يا رب العالمين .

البَــلاَغَــة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿ما تقدَّم . . وما تأخر﴾ وبين ﴿مبشراً . . ونذيراً﴾ وبين ﴿بكرة . . وأصيلاً﴾ وبين ﴿نكث . . وأوفى﴾ وبين ﴿أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً﴾ وبين ﴿يغفر . . ويعذّب﴾ وبين ﴿محلّقين . . ومقصّرين﴾ وبين ﴿أشداء . . ورحماء﴾ .

٢ ـ المقابلة بين ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات . .﴾ الآية وبين ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات﴾ الآية .

٣ ـ الاستعارة التصريحية المكنية ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يدُ الله فوق أيديهم﴾ شبَّه المعاهدة على التضحية بالأنفس في سبيل الله طلباً لمرضاته بدفع السِّلع في نظير الأموال ، واستعير اسم المشبَّه به للمشبه واشتق من البيع يبايعون بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله ، والمكنية في قوله ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ شبَّه اطلاع الله على مبايعتهم ومجازاته على طاعتهم بملكٍ وضع يده على يد أميره ورعيته ، وطوى ذكر المشبَّه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو اليد على طريق الاستعارة المكنية ، ففي الآية استعارتان .

٤ ـ الكناية ﴿ولَّوا الأدبار﴾ كناية عن الهزيمة لأن المنهزم يدير ظهره لعدوه للهرب .

٥ ـ التعبير بصيغة المضارع لاستحضار صورة المبايعة ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك . .﴾ .

٦ ـ الالتفات من ضمير الغائب إلى الخطاب ﴿وعدكم الله مغانم﴾ بعد قوله تعالى ﴿فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم﴾ وذلك لتشريف المؤمنين في مقام الامتنان .

٧ ـ الإطناب بتكرار الحرج ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ لتأكيد نفي الإثم عن أصحاب الأعذار .

٨ ـ التشبيه التمثيلي ﴿كزرعٍ أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه . .﴾ الآية لأن وجه الشبه منتزعٌ من متعدد .

٩ ـ مراعاة الفواصل في نهاية الآيات وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح »

* * *



بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مدنية ، وهي على وجازتها سورة جليلةٌ ضخمة ، تتضمن حقائق التربية الخالدة ، وأسس المدنيّة الفاضلة ، حتى سمّاها بعض المفسرين « سورة الأخلاق » .

* ابتدأت السورة الكريمة بالأدب الرفيع الذي أدَّب الله به المؤمنين ، تجاه شريعة الله وأمر رسوله ، وهو ألاّ يُبرموا أمراً ، أو يُبدوا رأياً ، أو يقضوا حكماً في حضرة الرسول ﷺ حتى يستشيروه ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ .

* ثم انتقلت إلى أدبٍ آخر وهو خفض الصوت إذا تحدثوا مع الرسول ﷺ تعظيماً لقدره الشريف ، واحتراماً لمقامه السامي ، فإنه ليس كعامة الناس بل هو رسول الله ، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه في الخطاب مع التوقير والتعظيم والإجلال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . .﴾

* ومن الأدب الخاص إلى الأدب العام تنتقل السورة لتقرير دعائم المجتمع الفاضل ، فتأمر المؤمنين بعدم السماع للإشاعات ، وتأمر بالتثبت من الأنباء والأخبار ، لا سيما إن كان الخبر صادراً عن شخص غير عدل أو شخص متَّهم ، فكم من كلمةٍ نقلها فاجر فاسق سبَّبت كارثةً من الكوارث ، وكم من خبرٍ لم يتثبت منه سامعه جرَّ وبالاً ، وأحدث إنقساماً ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبينوا . .﴾ .

* ودعت السورة إلى الإصلاح بين المتخاصمين ، ودفع عدوان الباغين ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . .﴾ الآيات .

* وحذَّرت السورة من السخرية والهمز واللمز ، ونفَّرت من الغيبة والتجسس والظن السيء بالمؤمنين ، ودعت إلى مكارم الاخلاق ، والفضائل الاجتماعية ، وحين حذَّرت من الغيبة جاء النهي في تعبير رائع عجيب ، أبدعه القرآن غاية الإبداع ، صورة رجل يجلس إلى جنب أخٍ له ميت ينهش منه ويأكل لحمه ﴿ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ! ! فكرهتموه . .﴾ الآية ويا له من تنفير عجيب !!

* وختمت السورة بالحديث عن الأعراب الذين ظنوا الايمان كلمةً تقال باللسان ، وجاءوا يمنون على الرسول إيمانهم ، فتبين حقيقة الايمان ، وحقيقة الإسلام ، وشروط المؤمن الكامل وهو الذي جمع الايمان والإخلاص والجهاد والعمل الصالح ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . .﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

التسمية : سميت « سورة الحجرات » لأن الله تعالى ذكر فيها حرمة بيوت النبي ﷺ وهي الحجرات التي كان يسكنها أُمهات المؤمنين الطاهرات رضوان الله عليهن .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله . . إلى . . إن الله تواب رحيم﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٢) .

اللغة : ﴿يغضُّون﴾ غضَّ صوته خفضه وخافت به ﴿فاسقٌ﴾ الفاسق : الخارج من حدود الشرع ، وهو في أصل الاشتقاق موضوع لما يدل على معنى الخروج ، مأخوذ من قولهم : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها ، وسمي فاسقاً لخروجه عن الطاعة ﴿نبأ﴾ النبأ : الخبر الهام قال الراغب : لا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن[١] ﴿عنتم﴾ وقعتم في العَنَت وهو المشقة والهلاك قال في اللسان : العنت : الهلاك وأعنته أوقعه في الهلكة[٢] ﴿الراشدون﴾ جمع راشد وهو المهتدي إلى محاسن الأمور ﴿تفيء﴾ ترجع ﴿بغت﴾ اعتدت واستطالت وأصله مجاوزة الحد في الظلم والطغيان ﴿تلمزوا﴾ تعيبوا .

سبب النزول : أ ـ روي أن بعض الأعراب الجفاة جاءوا إلى حجرات أزواج النبي ﷺ فجعلوا ينادونه : يا محمد أُخرج إلينا ، يا محمد أُخرج إلينا فأنزل الله ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ .

ب ـ وروي أن النبي ﷺ بعث « الوليد بن عقبة » إلى الحارث بن ضرار ليقبض ما كان عنده من الزكاة التي جمعها من قومه ، فلما سار الوليد واقترب منهم خاف وفزع ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله : إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فهمَّ بعض الصحابة بالخروج إليهم وقتالهم فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأٍ فتبينوا . .﴾ الآية[٣] .

ج ـ عن أنس قال : قيل للنبي ﷺ لو أتيت « عبد الله بن أُبيٍّ » ـ وهو رأس المنافقين ـ فانطلق إليه وركب حماراً ، وانطلق معه المسلمون يمشون ، فلما أتاه النبي ﷺ قال له : إليك عني ـ أي تنحَّ وابتعد عني ـ فوالله لقد آذاني نتنُ حمارك ، فقال رجل من الأنصار والله لحمارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه ، وغضب للأنصاري آخرون من قومه ، فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنعال ، فأنزل الله ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . .﴾[٤] الآية .

---

(١) مفردات القرآن للراغب . (٢) لسان العرب مادة عنت .

(٣) انظر تفصيل الرواية في مختصر ابن كثير ٣/ ٣٥٨ . (٤) أخرجه الشيخان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تُقدِّموا بينَ يدي اللهِ ورسوله**﴾ أي يا أيها المؤمنون ، يا من اتصفتم بالإِيمان ، وصدَّقتم بكتاب الله ، لا تُقدموا أمراً أو فعلاً بين يدي الله ورسوله ، وحُذِف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قولٍ أو فعل ، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب ، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل ، وإذا ذهبوا معه إلى مكان لا يمشون أمامه ونحو ذلك قال ابن عباس : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ﷺ وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم[١] وقال البيضاوي : المعنى لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكم الله ورسوله به ، وقيل : المراد بين يدي رسول الله ، وذُكر اللهُ تعظيماً له وإشعاراً بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله[٢] ﴿**واتقوا اللهَ إن الله سميعٌ عليمٌ**﴾ أي واتقوا الله فيما أمركم به ، إن الله سميعٌ لأقوالكم ، عليمٌ بنياتكم وأحوالكم ، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والروعة في النفس . . ثم أرشد تعالى المؤمنين إلى وجوب توقير الرسول وإجلاله واحترامه فقال ﴿**يا أيها الذينَ آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوتِ النبي**﴾ أي إذا كلمتم رسولَ الله ﷺ فاخفضوا أصواتكم ولا ترفعوها على صوتِ النبي ﴿**ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض**﴾ أي ولا تبلغوا حدَّ الجهر عند مخاطبته ﷺ كما يجهر بعضكم في الحديث مع البعض ، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً فتقولوا : يا محمد ، ولكنْ قولوا يا نبيَّ الله ، ويا رسول الله ، تعظيماً لقدره ، ومراعاةً للأدب قال المفسرون : نزلت في بعض الأعراب الجفاة الذين كانوا ينادون رسول الله باسمه ، ولا يعرفون توقير الرسول الكريم ﴿**أنْ تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون**﴾ أي خشية أن تبطل أعمالكم من حيث لا تشعرون ولا تدرون ، فإن في رفع الصوت والجهر بالكلام في حضرته ﷺ استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط للعمل قال ابن كثير : روي أن ثابت بن قيس كان رفيع الصوت ، فلما نزلت الآية قال : أنا الذي كنتُ أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار ، حبط عملي ، وجلس في أهله حزيناً ، ففتقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : تفقَّدك رسول الله ﷺ ما لك ؟ فقال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ حبط عملي أنا من أهل

(١) مختصر ابن كثير ٣/٣٥٧ . (٢) البيضاوي ٣/ ٣٦٥ من الحاشية .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ

النار ، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال ، فقال النبي ﷺ : لا بل هو من أهل الجنة[1] وفي رواية « أترضى أن تعيش حميداً ، وتقتل شهيداً ، وتدخل الجنة ؟ فقال : رضيتُ ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ »[2] **﴿إنَّ الذينَ يغُضُّون أصواتهم عند رسول الله أولئك الَّذين امتحن اللهُ قُلوبهم للتقوى﴾** أي إن الذين يخفضون أصواتهم في حضرة الرسول ﷺ أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ومرَّنها عليها وجعلها صفة راسخةً فيها قال ابن كثير : أي أخلصها للتقوى وجعلها أهلاً ومحلاً **﴿لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم﴾** أي لهم في الآخرة صفحٌ عن ذنوبهم ، وثواب عظيم في جنات النعيم . . ثم ذمَّ تعالى الأعراب الجفاة الذين ما كانوا يتأدبون في ندائهم للرسول ﷺ فقال : **﴿إنَّ الَّذين يُنادونك من وراءِ الحُجُرات﴾** أي يدعونك من وراء الحجرات ، منازل أزواجك الطاهرات **﴿أكثرهم لا يعقلون﴾** أي أكثر هؤلاء غير عقلاء ، إذ العقل يقتضي حسن الأدب ، ومراعاة العظماء عند خطابهم ، سيّما لمن كان بهذا المنصب الخطير قال البيضاوي : قيل إن الذي ناداه « عُيينة بن حُصين » و« الأقرع بن حابس » وفدا على رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا يا محمد أخرج إلينا[3] **﴿ولوْ أنَّهم صبَروا حتَّى تخرج إليهم لكانَ خيراً لَهم﴾** أي ولو أنَّ هؤلاء المنادين لم يزعجوا الرسول ﷺ بنداءاتهم وصبروا حتى يخرج إليهم لكان ذلك الصبر خيراً لهم وأفضل عند الله وعند الناس ، لما فيه من مراعاة الأدب في مقام النبوة **﴿والله غفورٌ رحيم﴾** أي الغفور لذنوب العباد ، الرحيم بالمؤمنين حيث اقتصر على نصحهم وتقريعهم ، ولم يُنزل العقاب بهم . . ثم حذَّر تعالى من الاستماع للأخبار بغير تثبت فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ﴾** أي إذا أتاكم رجل فاسق ـ غير موثوق بصدقه وعدالته ـ بخبرٍ من الأخبار **﴿فتبيَّنوا﴾** أي فتثبتوا من صحة الخبر **﴿أنْ تصيبوا قوماً بجهالةٍ﴾** أي لئلا تصيبوا قوماً وأنتم جاهلون حقيقة الأمر **﴿فتُصبحوا على ما فعلتمْ نادمين﴾** أي فتصيروا نادمين أشد الندم على صنيعكم[4] **﴿واعلموا أن فيكم رسولَ اللّه﴾** أي واعلموا ـ أيها المؤمنون ـ أنَّ بينكم الرسول المعظَّم ، والنبيَّ المكرم ، المعصوم عن اتباع الهوى **﴿لو يُطيعكم في كثيرٍ من الأمر لعنتم﴾** أي لو يسمع وشاياتكم ، ويصغي بسمعه لإِرادتكم ، ويطيعكم في غالب ما تشيرون عليه من الأمور ، لوقعتم في الجهد والهلاك قال ابن كثير : أي اعلموا أنَّ بين أظهركم

(١) الحديث أخرجه أحمد . (٢) ذكر هذه الرواية ابن جرير الطبري . (٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٣٦٧ . (٤) انظر سبب النزول .

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ﴾

رسول الله فعظّموه ووقروه ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدّى ذلك الى عنتكم وحرجكم[1] **﴿ولكنَّ اللهَ حبَّب إليكم الايمان﴾** أي ولكنه تعالى - بمنّه وفضله - نوَّر بصائركم فحبَّب إلى نفوسكم الايمان **﴿وزَيَّنهُ في قُلوبكُم﴾** أي وحسَّنه في قلوبكم ، حتى أصبح أغلى عندكم من كل شيء **﴿وكرَّه إليكم الكُفر والفُسوق والعِصيان﴾** أي وبغَّض إلى نفوسكم أنواع الضلال ، من الكفر والمعاصي والخروج عن طاعة الله قال ابن كثير : والمراد بالفسوق الذنوبُ الكبار ، وبالعصيان جميع المعاصي[2] **﴿أولئك هم الراشدون﴾** أي أولئك المتصفون بالنعوت الجليلة هم المهتدون ، الراشدون في سيرتهم وسلوكهم ، والجملة تفيد الحصر أي هم الراشدون لا غيرهم **﴿فضلاً من اللّه ونعمة﴾** أي هذا العطاء تفضلٌ منه تعالى عليكم وإنعام **﴿والله عليمٌ حكيم﴾** أي عليمٌ بمن يستحق الهداية ، حكيم في خلقه وصنعه وتدبيره . . ثم عقَّب تعالى على ما يترتب على سماع الأنباء المكذوبة من تخاصم وتباغضٍ وتقاتل فقال **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾** أي وإنْ حدث أنَّ فئتين وجماعتين من إخوانكم المؤمنين جنحوا إلى القتال فأصلحوا بينهما ، واسعوا جهدكم للإصلاح بينهما ، والجمعُ **﴿اقتتلوا﴾** باعتبار المعنى ، والتثنية **﴿بينهما﴾** باعتبار اللفظ **﴿فإنْ بغت إحداهُما على الأُخرى﴾** أي فإن بغت إحداهما على الأخرى، وتجاوزت حدَّها بالظلم والطغيان، ولم تقبل الصلح وصمَّمت على البغي **﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر اللهِ﴾** أي فقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله وشرعه ، وتُقلع عن البغي والعدوان ، وتعمل بمقتضى أخوة الإسلام **﴿فإنْ فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا﴾** أي فإن رجعت وكفَّت عن القتال فأصلحوا بينهما بالعدل ، دون حيفٍ على إحدى الفئتين ، واعدلوا في جميع أموركم **﴿إنَّ الله يُحبُّ المقسطين﴾** أي يحبُّ العادلين الذين لا يجورون في أحكامهم قال البيضاوي : والآية نزلت في قتالٍ حدث بين « الأوس » و « الخزرج » في عهده ﷺ كان فيه ضرب بالسَّعف والنعال ، وهي تدلُّ على أن الباغي مؤمن ، وأنه إذا كفَّ عن الحرب ترك ، وأنه يجب تقديم النصح والسعي في المصالحة[3] **﴿إنما المؤمنون إخوةٌ﴾** أي ليس المؤمنون إلا إخوة ، جمعتهم رابطة الايمان ، فلا ينبغي أن تكون بينهم عداوة ولا

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦١ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٢ . (٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٣٧١ .

أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

شحناء ، ولا تباغضٌ ولا تقاتل **قال المفسرون** : ﴿ إنما ﴾ للحصر فكأنه يقول : لا أخوَّة إلا بين المؤمنين ، ولا أخوة بين مؤمن وكافر ، وفي الآية إشارة إلى أنَّ أخوة الإسلام أقوى من أخوَّة النسب ، بحيث لا تعتبر أخوَّة النسب إذا خلت عن أخوة الإسلام **﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾** أي فأصلحوا بين إخوانكم المؤمنين ، ولا تتركوا الفرقة تدبُّ ، والبغضاء تعمل عملها **﴿واتَّقوا اللهَ لعلكم تُرحمون﴾** أي اتقوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، لتنالكم رحمته ، وتسعدوا بجنته ومرضاته **﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قومٍ عسى أنْ يكونوا خيراً منهم﴾** أي يا معشر المؤمنين ، يا من اتصفتم بالايمان ، وصدَّقتم بكتاب الله وبرسوله ، لا يهزأ جماعة بجماعة ، ولا يسخر أحد من أحد ، فقد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر ، وربَّ أشعث أغبر ذو طمرين لو أقسم على الله لأبرَّه[1] **﴿ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أنْ يكنَّ خيراً منهنَّ﴾** أي ولا يسخر نساء من نساء فعسى أن تكون المحتقر منها خيراً عند الله وأفضل من الساخرة **﴿ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾** أي ولا يعب بعضكم بعضاً ، ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء ، وإنما قال **﴿أنفسكم﴾** لأن المسلمين كأنهم نفسٌ واحدة **﴿بئس الاسمُ الفُسوقُ بعد الايمان﴾** أي بئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن صار مؤمناً **قال البيضاوي** : وفي الآية دلالة على أن التنابز فسقٌ ، والجمع بينه وبين الايمان مستقبح[2] **﴿ومن لم يتُب فأولئك همُ الظَّالمون﴾** أي ومن لم يتبْ عن اللَّمز والتنابز فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب **﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنِّ﴾** أي ابتعدوا عن التهمة والتخون وإساءة الظنِّ بالأهل والناس ، وعبَّر بالكثير ليحتاط الإنسان في كل ظنٍّ ولا يسارع فيه بل يتأملُ ويتحقَّق **﴿إنَّ بعض الظنِّ إثمٌ﴾** أي إنَّ في بعض الظنِّ إثم وذنب يستحق صاحبه العقوبة عليه قال عمر رضي الله عنه : « لا تظنَّنَّ بكلمةٍ خرجت من أخيكَ المؤمنِ إلا خيراً ، وأنت تجدُ لها في الخير محملاً »[3] **﴿ولا تجسَّسوا﴾** أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوا معايبهم[4] **﴿ولا يغْتب بعضكم بعضاً﴾** أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته بما يكرهه **﴿أيُحبُّ أحدكم أنْ يأكل لحم أخيهِ ميْتاً﴾** تمثيلٌ لشناعة

(١) هذا حديث صحيح . (٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٣٧٣ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٤ . (٤) وفي الحديث (يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتَّبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه يتَّبع الله عورته ، ومن يتَّبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته) أخرجه الحافظ أبو يعلى .

﴿فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

الغيبة وقبحها بما لا مزيد عليه من التقبيح أي هل يحب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت ؟ ﴿فكرهتموه﴾ أي فكما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا الغيبة شرعاً ، فإن عقوبتها أشدُّ من هذا . . شبَّه تعالى الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتاً ، وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان ـ فضلاً عن كونه أخاً ، وفضلاً عن كونه ميتاً وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة أو أشد ﴿واتقوا اللهَ﴾ أي خافوا الله واحذروا عقابه ، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿إنَّ اللهَ توابٌ رحيم﴾ أي إنه تعالى كثير التوبة ، عظيم الرحمة ، لمن اتقى اللهَ وتاب وأناب ، وفيه حثٌ على التوبة ، وترغيبٌ بالمسارعة إلى الندم والاعتراف بالخطأ لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى . . إلى . . والله بصيرٌ بما تعملون﴾ من آية (١٣) إلى آية (١٨) نهاية السورة .

المناسَبَة : لَمَّا دعا تعالى إلى مكارم الأخلاق ونهى عن مساوئها ، وحذَّر المؤمنين من بعض الأفعال القبيحة ، دعا الناس هنا جميعاً للتعارف والتآلف ونهاهم عن التفاخر بالأنساب ، ثم بيَّن صفات المؤمن الكامل .

اللغَة : ﴿يلتكم﴾ ينقصكم ﴿قبائل﴾ جمع قبيلة وهي الجماعة التي يربطها حسبٌ أو نسبٌ ، وهي أخصُّ من الشعب ، لأن الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد ، فالشعب يجمع القبيلة ، والقبيلة تجمع البطون والأفخاذ ﴿يرتابوا﴾ يشكُّوا والريب : الشكُ ﴿يمنُّون﴾ المنُّ : الامتنان على الشخص والاعتداد عليه بفعل المعروف ، وأصله في اللغة القطع ومنه ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسدٍ إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله : أسلمنا ، وقاتلتك العرب ولم نقاتلك ، وأخذوا يمنون عليه فنزلت الآية الكريمة ﴿يمنون عليك أن أسلموا . .﴾[1] الآية .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

التفسِير : ﴿يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى﴾ الخطاب لجميع البشر أي نحن بقدرتنا خلقناكم من أصلٍ واحد ، وأوجدناكم من أب وأم فلا تفاخر بالآباء والأجداد ، ولا اعتداد بالحسب والنسب ، كلكم لآدم وآدمُ من تراب ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ أي وجعلناكم شعوباً شتى وقبائل متعددة ، ليحصل بينكم التعارف والتآلف ، لا التناحر والتخالف قال مجاهد : ليعرف الإنسان نسبه فيقال فلان بن فلان من قبيلة كذا[2] ، وأصل تعارفوا تتعارفوا حذفت إحدى التاءين تخفيفاً

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٦٩ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٦٧ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ * قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾

قال شيخ زاده: والمعنى إن الحكمة التي من أجلها جعلكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض ولا ينسبه إلى غير آبائه ، لا أن تتفاخر بالآباء والأجداد ، والنسبُ وإن كان يُعتبر عرفاً وشرعاً ، حتى لا تُزوج الشريفة بالنبطيّ ، إلا أنه لا عبرة به عند ظهور ما هو أعظم قدراً منه وأعز ، وهو الإيمان والتقوى ، كما لا تظهر الكواكب عند طلوع الشمس[1] **﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** أي إنما يتفاضل الناس بالتقوى لا بالأحساب والأنساب ، فمن أراد شرفاً في الدنيا ومنزلةً في الآخرة فليتق الله كما قال ﷺ : (من سرَّه أن يكون أكرم الناس فليتَّق الله)[2] وفي الحديث (الناسُ رجلان : رجل برٌّ تقي كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقي هيّن على الله تعالى)[3] **﴿إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ﴾** أي عليمٌ بالعباد ، مطلع على ظواهرهم وبواطنهم ، يعلم التقي والشقي ، والصالح والطالح **﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾** . **﴿قالتْ الأعرابُ آمنَّا قلْ لم تؤمنوا ولكنْ قُولوا أسلمنا﴾** أي زعم الأعراب أنهم آمنوا قل لهم يا محمد : إنكم لم تؤمنوا بعد ، لأن الإيمان تصديقٌ مع ثقة واطمئنان قلب ، ولم يحصل لكم ، وإلا لما مننتم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة ، ولكنْ قولوا استسلمنا خوف القتل والسبي **قال المفسرون** : نزلت في نفرٍ من بني أسد ، قدموا المدينة في سنةٍ مجدبة ، وأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان ، يريدون الصَّدقة ويمنّون على الرسول ، وقد دلت الآية على أن الإيمان مرتبةٌ أعلى من الإسلام ، الذي هو الاستسلام والانقياد بالظاهر ولهذا قال تعالى **﴿ولمَّا يدخل الإيمان في قُلوبكم﴾** أي ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم ولم تصلوا إلى حقيقته بعد ، ولفظةُ « لمَّا » تفيد التوقع كأنه يقول : وسيحصل لكم الإيمان عند اطلاعكم على محاسن الإسلام ، وتذوقكم لحلاوة الإيمان **قال ابن كثير** : وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا منافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم ، فادَّعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك ، ولو كانوا منافقين ـ كما ذهب إليه البخاري ـ لعُنفوا وفُضِحوا[4] **﴿وإن تطيعوا اللهَ ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾** أي وإن أطعتم الله ورسوله بالإخلاص الصادق ، والإيمان الكامل ، وعدم المنِّ على الرسول لا ينقصكم من أجوركم شيئاً **﴿إن اللهَ غفور رحيم﴾** أي عظيم المغفرة ، واسع الرحمة ، لأن صيغة « فعول » و « فعيل » تفيد المبالغة . . ثم ذكر تعالى صفات المؤمنين الكُمَّل الصادقين في إيمانهم فقال **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾** أي إنما المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان ، الذين صدَّقوا الله ورسوله ، فأقروا للّه بالوحدانية ، ولرسوله

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٣٧٥ (٢) البيضاوي ٣/ ٣٧٥

(٣) جزء من خطبة قالها ﷺ عند فتح مكة وخطب الناس بها (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٩

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

بالرسالة ، عن يقين راسخ وإيمان كامل ﴿ثم لم يرتابوا﴾ أي ثم لم يشكوا ويتزلزلوا في إيمانهم بل ثبتوا على التصديق واليقين ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي وبذلوا أموالهم ومهجهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي أولئك الذين صدقوا في ادعاء الإيمان . وصف تعالى المؤمنين الكاملين بثلاثة أوصاف : **الأول** : التصديق الجازم بالله ورسوله **الثاني** : عدم الشك والارتياب **الثالث** : الجهاد بالمال والنفس ، فمن جمع هذه الأوصاف فهو المؤمن الصادق ﴿قُل أتُعلمون اللّه بدينكم﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي قل لهم يا محمد : أتخبرون الله بما في ضمائركم وقلوبكم ؟ ﴿والله يعلمُ ما في السموات وما في الأرض﴾ أي وهو جل وعلا العليم بأحوال جميع العباد ، لا تخفى عليه خافية لا في السموات ولا في الأرض ﴿والله بكل شيءٍ عليم﴾ أي واسع العلم رقيب على كل شيء ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿يمُنّون عليكَ أنْ أسْلموا﴾ أي يعدُّون إسلامهم عليك يا محمد منَّة ، يستوجبون عليها الحمد والثناء ﴿قلْ لا تَمُنُّوا عليَّ إسْلامكم﴾ أي قل لهم لا تمتنوا عليَّ بإسلامكم ، فإن نفع ذلك عائد عليكم ﴿بل اللّهُ يمنُّ عليكم أنْ هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ أي بل للهِ المنةُ العظمى عليكم ، بالهداية للإيمان والتثبيت عليه ، إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان ﴿إن الله يعلمُ غيبَ السَّموات والأرض﴾ أي يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض ﴿والله بصيرٌ بما تعملون﴾ أي مطَّلع على أعمال العباد ، لا تخفى عليه خافية . . كرَّر تعالى الإخبار بعلمه بجميع الكائنات ، وإحاطته بجميع المخلوقات ، ليدل على سعة علمه ، وشموله لكل صغيرة وكبيرة ، في السر والعلن ، والظاهر والباطن .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿لا تُقدِّموا بين يدي اللهِ ورسوله﴾ شبَّه حالهم في إبداء الرأي وقطع الأمر في حضرة الرسول بحال ملكٍ عظيم تقدَّم للسير أمامه بعض الناس وكان الأدب يقضي أن يسيروا خلفه لا أمامه ، وهذا بطريق الاستعارة التمثيلية .

٢ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾ لوجود أداة التشبيه .

٣ ـ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿أولئك هم الراشدون﴾ بعد قوله ﴿حبَّب إليكم الإيمان﴾ وهذا من المحسنات البديعية .

٤ ـ المقابلة بين ﴿حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم﴾ وبين ﴿وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ .

٥ ـ الطباق ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ .

٦ ـ جناس الاشتقاق ﴿أقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ .

٧ ـ التشبيه التمثيلي ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾ مثَّل للغيبة بمن يأكل لحم الميت ، وفيه مبالغات عديدة لتصوير الاغتياب بأقبح الصور وأفحشها في الذهن .

٨ ـ طباق السلب ﴿آمنا قل لم تؤمنوا﴾ .

٩ ـ الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أتعلِّمون الله بدينكم﴾ ؟

١٠ ـ التشبيه البليغ ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ أصل الكلام المؤمنون كالإخوة في وجوب التراحم والتناصر ، فحذف وجه الشبه وأداة التشبيه فأصبح بليغاً مع إفادة الجملة الحصر .

تنبيه : سورة الحجرات تسمى سورة « الأخلاق والآداب » فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق ، وفضائل الأعمال ، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان خمس مراتٍ ، وفي كل مرة إرشاد إلى مكرمة من المكارم وفضيلة من الفضائل ، وهذه الآداب الرفيعة نستعرضها في فقرات :

أولاً : وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله وعدم التقدم عليه بقول أو رأي ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ .

ثانياً : احترام الرسول وتعظيم شأنه ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . .﴾ .

ثالثاً : وجوب التثبت من الأخبار ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا . .﴾ .

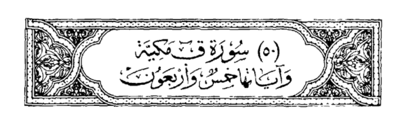
رابعاً : النهي عن السخرية بالناس ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم . .﴾ .

خامساً : النهي عن التجسس والغيبة وسوء الظن ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن . .﴾ الآية .

لطيفة : سئل بعض العلماء عما وقع بين الصحابة من قتال فقال « تلك دماءٌ قد طهَّر الله منها أيدينا فلا نلوِّث بها ألسنتنا ، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته » .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* هذه السورة مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية « الوحدانية ، الرسالة ، البعث » ولكنَّ المحور الذي تدور حوله هو موضوع « البعث والنشور » حتى ليكاد يكون هو الطابع الخاص للسورة الكريمة ، وقد عالجه القرآن بالبرهان الناصع ، والحجة الدامغة . وهذه السورة رهيبة ، شديدة الوقع على الحسِّ ، تهزُّ القلب هزاً ، وترجُّ النفس رجاً ، وتثير فيها روعة الإعجاب ،ورعشة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب .

* ابتدأت السورة بالقضية الأساسية التي أنكرها كفار قريش ، وتعجبوا منها غاية العجب ، وهي قضية الحياة بعد الموت ، والبعث بعد الفناء ﴿قٓ * والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد . . ﴾ الآيات .

* ثم لفتت السورة أنظار المشركين - المنكرين للبعث - إلى قدرة الله العظيمة ، المتجلية في صفحات هذا الكون المنظور ، في السماء والأرض ، والماء والنبت ، والثمر والطلع ، والنخيل والزرع وكلها براهين قاطعة على قدرة العلي الكبير ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها . . ﴾ الآيات .

* وانتقلت السورة الكريمة للحديث عن المكذبين من الأمم السالفة ، وما حلَّ بهم من الكوارث وأنواع العذاب ، تحذيراً لكفار مكة أن يحل بهم ما حلَّ بالسابقين ﴿كذبت قبلهم قوم نوحٍ وأصحاب الرس وثمود . . ﴾ الآيات .

* ثم انتقلت السورة للحديث عن سكرة الموت ، ووهلة الحشر ، وهول الحساب ، وما يلقاه المجرم في ذلك اليوم العصيب من أهوال وشدائد تنتهي به بإلقائه في الجحيم ﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . . ﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن « صيحة الحقِّ » وهي الصيحة التي يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر ، ويساقون للحساب والجزاء لا يخفى على الله منهم أحد ، وفيه إثباتٌ للبعث

والنشور الذي كذب به المشركون ﴿واستمع يوم ينادي المُنادِ من مكان قريب* يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . .﴾ الآيات .

* * *

قال الله تعالى : ﴿قٓ * والقرآن المجيد . . إلى . . فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢) .

اللغَة : ﴿مريج﴾ مختلط قال ابن قتيبة : مرج الأمر ومرج الدين اختلط ، وأصله أن يقلق الشيء ولا يستقر يقال : مرج الخاتم في يدي إذا قلق للهزال ﴿فروج﴾ شقوق وصدوع جمع فرج وهو الشقُّ ﴿باسقات﴾ طوال بسق الشيء بُسوقاً إذا طال ﴿نضيد﴾ متراكب بعضه فوق بعض ﴿لبس﴾ حيرة وشك واضطراب ﴿عيينا﴾ عجزنا يقال : عيي به يعيا أي عجز عنه ﴿رقيب﴾ حافظ شاهد على أعمال الإنسان ﴿عتيد﴾ حاضر مهيأ قال الجوهري : العتيد الشيء الحاضر المهيأ ومنه ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ وفرسٌ عتد معدٌ للجري[1] ﴿حديد﴾ حادٌ نافذ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾

التفسِير : ﴿ق﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية[2] ﴿والقرآن المجيد﴾ قسمٌ حذف جوابه أي أقسم بالقرآن الكريم ، ذي المجد والشرف على سائر الكتب السماوية لتبعثنَّ بعد الموت قال ابن كثير : وجواب القسم محذوف وهو مضمون الكلام بعده وهو إثبات النبوة ، وإثبات المعاد وتقديره إنك يا محمد لرسول وانَّ البعث لحق[3] ، وهذا كثير في القرآن وقال أبو حيان : والقرآنُ مقسم به ، والمجيد صفته وهو الشريف على غيره من الكتب ، والجواب محذوفٌ يدل عليه ما بعده تقديره : لقد جئتهم منذراً بالبعث فلم يقبلوا[4] ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم﴾ أي تعجب المشركون من إرسال رسول إليهم من البشر يخوفهم من عذاب الله ﴿فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيب﴾ أي فقال كفُار مكة : هذا شيءٌ في منتهى الغرابة والعجب،والإظهار في موضع الإضمار لتسجيل جريمة الكفر عليهم ، والآية إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب ، فإنهم قد عرفوا صدق الرسول وأمانته ونصحه ، فكان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان لا أن يعجبوا ويستهزئوا ، ثم أخبر تعالى عن وجه تعجبهم فقال ﴿أئِذا متنا وكنّا تراباً﴾ أي أئذا متنا

(١) الصحاح مادة عتد . (٢) انظر أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة . (٣) هذا خلاصة قول ابن كثير وانظر المختصر ٣/ ٣٧١ .
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٢٠ .

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

واستحالت أجسادنا إلى تراب هل سنحيا ونرجع كما كنَّا ؟ ﴿ذلك رجعٌ بعيد﴾ أي ذلك رجوع بعيد غاية البعد ، مستحيل حصوله ﴿قد علِمنا ما تنقص الأرضُ منهم﴾ أي قد علمنا ما تنقصه الأرض من أجسادهم ، وما تأكله من لحومهم وأشعارهم ودمائهم إذا ماتوا ، فلا يضل عنا شيءٌ حتى تتعذَّر علينا الإعادة ﴿وعندنا كتابٌ حفيظ﴾ أي ومع علمنا الواسع عندنا كتاب حافظ لعددهم وأسمائهم وما تأكله الأرض منهم ، وهو اللوح المحفوظ الذي يحصي تفصيل كل شيء ﴿بل كذَّبوا بالحقِّ لما جاءهم﴾ إضراب إلى ما هو أفظع وأشنع من التعجب وهو التكذيب بالقرآن العظيم أي كذبوا بالقرآن حين جاءهم، مع سطوع آياته، ووضوح بيانه ﴿فهم في أمرٍ مريج﴾ أي فهم في أمر مختلط مضطرب ، فتارة يقولون عن الرسول إنه ساحر ، وتارةً يقولون إنه شاعر ، وتارة يقولون إنه كاهن ، وهكذا قالوا أيضاً عن القرآن إنه سحر ، أو شعر ، أو أساطير الأولين إلى غير ذلك . ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية الدالة على عظمة رب العالمين فقال ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم﴾ أي أفلم ينظروا نظر تفكر واعتبار ، إلى السماء في ارتفاعها وإحكامها ، فيعلموا أن القادر على إيجادها قادر على إعادة الإنسان بعد موته ؟ ﴿كيف بنيناها وزيَّناها﴾ أي كيف رفعناها بلا عمد وزيناها بالنجوم ﴿وما لها من فروج﴾ أي مالها من شقوق وصدوع ﴿والأرض مددناها﴾ أي والأرض بسطناها ووسعناها ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ أي وجعلنا فيها جبالاً ثوابت تمنعها من الاضطراب بسكانها ﴿وأنبتنا فيها من كل زوجٍ بهيج﴾ أي وأنبتنا فيها من كل نوعٍ من النبات حسن المنظر ، يبهج ويسر الناظر إليه ﴿تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب﴾ أي فعلنا ذلك تبصيراً منا وتذكيراً على كمال قدرتنا ، لكل عبد راجع إلى الله متفكر في بديع مخلوقاته ﴿ونزَّلنا من السماء ماءً مباركاً﴾ أي ونزلنا من السحاب ماءً كثير المنافع والبركة ﴿فأنبتْنا به جنَّات وحبَّ الحصيد﴾ أي فأخرجنا بهذا الماء البساتين الناضرة ، والأشجار المثمرة ، وحبَّ الزرع المحصود ، كالحنطة والشعير وسائر الحبوب التي تحصد ﴿والنخل باسقات﴾ أي وأخرجنا شجر النخيل طوالاً مستويات ﴿لها طلعٌ نضيدٌ﴾ أي لها طلعٌ منضود ، منظمٌ بعضه فوق بعض ، قال أبو حيان : يريد كثرة الطلع وتراكمه وكثرة ما فيه من الثمر ، وأول ظهور الثمر يكون منضَّداً كحب الرمان ، فما دام ملتصقاً بعضه ببعض فهو نضيد ، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد[1] ﴿رزقاً للعباد﴾ أي أنبتنا كل

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢٢ .

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾

ذلك رزقاً للخلق لينتفعوا به ﴿وأحْيينا به بلدةً ميتاً﴾ أي وأحيينا بذلك الماء أرضاً جدبة لا ماء فيها ولا زرع فأنبتنا فيها الكلأ والعشب ﴿كذلك الخروجُ﴾ أي كما أحييناها بعد موتها كذلك نخرجكم أحياء بعد موتكم **قال ابن كثير** : وهذه الأرض الميتة كانت هامدة ، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها ، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء ، فهذا مثال للبعث بعد الموت ، فكما أحيا الله الأرض الميتة كذلك يحيي الله الموتى . .[1] ثم ذكَّر تعالى كفار مكة بما حلَّ بمن سبقهم من المكذبين إنذاراً لهم وإعذاراً فقال ﴿كذبتْ قبلهم قومُ نوحٍ﴾ أي كذَّب قبل هؤلاء الكفار قوم نوح ﴿وأصحابُ الرسّ﴾ أي وأصحاب البئر وهم بقية من ثمود رسُّوا نبيَّهم فيها أي دسُّوه فيها ﴿وثمودُ وعادٌ وفرعونُ وإخوانُ لوطٍ﴾ سمَّاهم إخوانه لأنه صاهرهم وتزوج منهم ﴿وأصحابُ الأيكةِ﴾ أي وأصحاب الشجر الكثير الملتف وهم قوم شعيب ، نُسبوا إلى الأيكة لأنهم كانت تحيط بهم البساتين والأشجار الكثيرة ، الملتف بعضُها على بعض ﴿وقومُ تُبَّعٍ﴾ قال المفسرون : هو ملكٌ كان باليمن أسلم ودعا قومه إلى الإسلام فكذبوه وهو تُبَّع اليماني[2] ﴿كلٌّ كذَّب الرسلَ﴾ أي جميع هؤلاء المذكورين كذبوا رسولهم **قال ابن كثير** : وإنما جمع الرسل لأن من كذَّب رسولاً فإنما كذب جميع الرسل كقوله تعالى ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾[3] ﴿فحقَّ وعيدِ﴾ أي فوجب عليهم وعيدي وعقابي ، والآية تسليةٌ للنبي ﷺ وتهديد للكفرة المجرمين ﴿أفعيينا بالخلقِ الأول﴾ أي أفعجزنا عن ابتداء الخلق حتى نعجز عن إعادتهم بعد الموت ؟ **قال القرطبي** : وهو توبيخٌ لمنكري البعث ، وجوابٌ لقولهم ﴿ذلك رجعٌ بعيد﴾[4] ومراده أن ابتداء الخلق لم يعجزنا ، والإعادةُ أسهلُ منه فكيف يُتوهم عجزنا عن البعث والإعادة ؟ ﴿بل هُم في لَبْسٍ من خلقٍ جديد﴾ أي بل هم في خلطٍ وشبهةٍ وحيرة من البعث والنشور **قال الألوسي** : وإنما نكَّر الخلق ووصف بجديد ، ولم يقل : من الخلق الثاني تنبيهاً على استبعادهم له وأنه خلق عظيم يجب أن يهتم بشأنه فله نبأ عظيم[5] ثم نبه تعالى على سعة علمه وكمال قدرته فقال ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوسُ به نفسه﴾ أي خلقنا جنس الإنسان ونعلم ما يجول في قلبه وخاطره ، لا يخفى علينا شيء من خفاياه ونواياه ﴿ونحن أقربُ إليه من حبل الوريد﴾ أي ونحن أقرب إليه من حبل وريده ، وهو عرق كبير في العنق متصل بالقلب **قال أبو حيان** : ونحن أقرب إليه قرب علم ، نعلم به وبأحواله لا يخفى علينا شيء من خفياته ، فكأن ذاته تعالى

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٢ . (٢) انظر حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ٩١ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٢ .
(٤) تفسير القرطبي ١٧/ ٨ . (٥) تفسير روح المعاني ٢٦/ ١٧٨ .

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾

قريبة منه ، وهو تمثيل لفرط القرب كقول العرب : هو مني معقد الإزار[1] وقال ابن كثير : المراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، والحلول والاتحاد منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدَّس ، وهذا كما قال في المختصر ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكنْ لا تُبصرون﴾ يريد به الملائكة[2] ، ويدل عليه قوله بعده ﴿إذْ يتلقَّى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيدٌ﴾ أي حين يتلقى الملكان الموكلان بالإنسان ، ملك عن يمينه يكتب الحسنات ، وملك عن شماله يكتب السيئات ، وفي الكلام حذفٌ تقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأول لدلالة الثاني عليه قال مجاهد : وكَّل الله بالإنسان ـ مع علمه بأحواله ـ ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله ويكتبان أثره إلزاماً للحجة ، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات ، والآخر عن شماله يكتب السيئات فذلك قوله تعالى ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيدٌ﴾[3] وقال الألوسي : والمراد أنه سبحانه أعلم بحال الإنسان من كل رقيب ، حين يتلقى المتلقيان الحفيظان ما يتلفظ به ، وفيه إيذانٌ بأنهِ عز وجل غنيٌ عن استحفاظ الملكين ، فإنه تعالى أعلم منهما ومطَّلع على ما يخفى عليهما ، لكنْ الحكمة اقتضت كتابة الملكين لعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد ، فإذا علم العبد ذلك ـ مع علمه بإحاطة الله تعالى بعلمه ـ ازداد رغبةً في الحسنات ، وانتهاءً عن السيئات[4] ﴿ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ﴾ أي ما يتلفظ كلمةً من خيرٍ أو شر ، إلا وعنده ملك يرقب قوله ويكتبه ﴿عتيدٌ﴾ أي حاضر معه أينما كان مهيأٌ لكتابة ما أمر به قال ابن عباس : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر[5] وقال الحسن : فإذا مات ابن آدم طويت صحيفته وقيل له يوم القيامة ﴿اقرأْ كتابك كفى بنَفسك اليوم عليك حسيباً﴾[6] ﴿وجاءت سَكْرَةُ الموتِ بالحقِّ﴾ أي وجاءت غمرة الموت وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله ، بالأمر الحق من أهوال الآخرة حتى يراها المنكر لها عياناً ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي ذلك ما كنت تفر منه وتميل عنه وتهرب منه وتفزع وفي الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ لمّا تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : « سبحان الله إنَّ للموت لسكرات »[7] ﴿ونُفخ في الصُّور ذلك يومُ الوعيد﴾ أي ونفخ في الصور نفخة البعث ذلك هو اليوم الذي وعد الله الكفار به بالعذاب ﴿وجاءت كلُّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد﴾ أي وجاء كل إنسان براً كان أو فاجراً ومعه ملكان : أحدهما يسوقه إلى المحشر ، والآخر يشهد عليه بعمله قال ابن عباس : السائق من الملائكة . والشهيد من أنفسهم وهي الأيدي والأرجل ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهُم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ وقال مجاهد :

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٢٣ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٧٣ . (٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٩ .
(٤) تفسير روح المعاني ٢٦/ ١٧٩ . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٤ .
(٦) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٢٤ . (٧) رواه البخاري .

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

السائق والشهيد ملكان ، ملكٌ يسوقه وملك يشهد عليه[1] ﴿لقد كُنتَ في غفلة من هذا﴾ أي لقد كنت أيها الإنسان في غفلةٍ من هذا اليوم العصيب ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ أي فأزلنا عنك الحجاب الذي كان على قلبك وسمعك وبصرك في الدنيا ﴿فبصرك اليومَ حديدٌ﴾ أي فبصَرك اليوم قويٌّ نافذ ، ترى به ما كان محجوباً عنك لزوال الموانع بالكلية .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقال قرينه هذا ما لديَّ عتيد . . إلى . . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ من آية (٢٣) إلى آية (٤٥) نهاية السورة .

المناسبة : لمّا حكى تعالى في الآيات السابقة إنكار المشركين للبعث ، وأقام الأدلة والبراهين على البعث والنشور ، ذكر هنا الأهوال والشدائد التي يلقاها الكافر في الآخرة ، والنعيم الذي أعدَّه للمؤمنين الأبرار في الجنة ، وختم السورة الكريمة ببيان دلائل البعث وأحواله وأطواره .

اللغة : ﴿أزلفت﴾ قُربت يقال : زلف يزلف أي قرب ، وأزلفه قرَّبه ﴿أوَّاب﴾ رجَّاع إلى الله من آب يئوب أوباً إذا رجع ﴿بطشاً﴾ البطش : الأخذ بالشدة والعنف ﴿نقَّبوا﴾ طوَّفوا وساروا وأصل التنقيب التنقير عن الشيء والبحث عنه قال الشاعر :

نقَّبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض كلَّ مجال[2]

﴿محيص﴾ مفر ومهرب من حاص يحيص حيصاً إذا أراد الهرب ﴿لغوب﴾ تعب .

سبب النزول : عن قتادة أن اليهود قالوا إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، وأنه تعب فاستراح يوم السبت وسمَّوه يوم الراحة فكذبهم تعالى فيما قالوا فنزلت ﴿ولقد خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾[3] .

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾

التفسير : ﴿وقال قرينُه هذا ما لديَّ عتيدٌ﴾ أي وقال الملك الموكل به : هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرتُ ديوان عمله ﴿ألقيا في جهنَّم كل كفار عنيد﴾ أي يقول تعالى للملكين « السائق والشهيد » إقذفا في جهنم كلَّ كافر معاند للحقِّ لا يؤمن بيوم الحساب ﴿منَّاع للخير﴾ أي مبالغ في المنع لكل حقٍّ واجب عليه في ماله ﴿مُعتدٍ مُريب﴾ أي ظالم غاشم شاكٍ في

(١) اخترنا قول مجاهد هنا ، لأنه الظاهر من الآية الكريمة ، وهو ما رجحه الطبري وابن كثير .
(٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٢ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٧٨ .

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾

الدين ﴿**الذي جعل مع اللّه إلهاً آخر**﴾ أي أشرك بالله ولم يؤ من بوحدانيته ﴿**فألقياه في العذاب الشديد**﴾ أي فألقياه في نار جهنم ، وكرر اللفظ ﴿**فألقياه**﴾ للتوكيد ﴿**قال قرينه ربنا ما أطغيته**﴾ أي قال قرينه وهو الشيطان المقيَّض له ربنا ما أضللتُه ﴿**ولكنْ كان في ضلالٍ بعيد**﴾ أي ولكنَّه ضلَّ باختياره ، وآثر العمى على الهدى من غير إكراهٍ أو إجبار ، وفي الآية محذوفٌ دل عليه السياق كأن الكافر قال يا رب إن شيطاني هو الذي أطغاني ، فيقول قرينه : ربنا ما أطغيتُه بل كان هو نفسه ضالاً معانداً للحق فأعنته عليه ﴿**قال لا تختصموا لديَّ وقد قدَّمتُ إليكم بالوعيد**﴾ أي فيقول الله عز وجل للكافرين وقرنائهم من الشياطين : لا تتخاصموا هنا فما ينفع الخصام ولا الجدال ، وقد سبق أن أنذرتكم على ألسنة الرسل بعذابي ، وحذرتكم شديد عقابي ، فلم تنفعكم الآياتُ والنُّذر ﴿**ما يُبدَّل القولُ لديَّ**﴾ أي ما يُغيَّر كلامي ، ولا يُبدَّل حكمي بعقاب الكفرة المجرمين قال المفسرون : المراد وعدُه تعالى بعذاب الكافر وتخليده في النار بقوله تعالى ﴿لأملأنَّ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين﴾[1] ﴿**وما أنا بظلاَّم للعبيد**﴾ أي ولست ظالماً حتى أعذب أحداً بدون استحقاق ، وأعاقبه بدون جرم ﴿**يوم نقُولُ لجهنَّم هل امتلأتِ وتقول هل من مزيد**﴾ ؟ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب يوم يقول الله تعالى لجهنم هل امتلأت ، وتقول هل هناك من زيادة ؟ وفي الحديث (لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول هل من مزيد ، حتى يضع ربُّ العزة فيها قدمه ، فتقول : قَطْ ، قَطْ وعزتك وكرمك ـ أي قد اكتفيتُ ـ وينزوي بعضُها إلى بعض)[2] والظاهر أن السؤ ال والجواب على حقيقتهما ، والله على كل شيء قدير ، فإن إنطاق الجماد والشجر والحجر جائز عقلاً ، وحاصلٌ شرعاً ، وقد أخبر القرآن الكريم أنَّ نملة تكلمت ، وأن كل شيء يسبح بحمد الله ، وورد في صحيح مسلم أن المسلمين في آخر الزمان يقاتلون اليهود ، حتى يختبىء اليهودي وراء الشجر والحجر ، فينطق الله الشجر والحجر . . الخ وقيل : إن الآية على التمثيل وأنها تصويرٌ لسعة جهنم وتباعد أقطارها بحيث لو ألقي فيها جميع الكفرة والمجرمين فإنها تتسع لهم[3] ، وهو كقولهم « قال الحائط للمسمار لم تشقني ؟ قال : سلْ منْ يدقني » ثم أخبر تعالى عن حال السعداء بعد أن ذكر حال الأشقياء فقال ﴿**وأُزْلفت الجنةُ للمتقين غير بعيد**﴾ أي قُرِّبت وأدنيت الجنة من المؤمنين المتقين مكاناً غير بعيد ، بحيث تكون بمرأى منهم مبالغة في إكرامهم ﴿**هذا ما توعدون لكل أوَّاب**

(١) انظر حاشية الجمل ٤/ ٩٦ والقرطبي ١٧/ ١٧ . (٢) الحديث من رواية البخاري ومسلم .
(٣) هذا القول أنه ليس ثمة قول وإنما هو على طريق التمثيل قول الخلف ، ونقل القرطبي أن هذا هو تفسير مجاهد ، والقول الأول قول السلف.

ﭐدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾

حفيظ﴾ أي يقال لهم : هذا الذي ترونه من النعيم هو ما وعده الله لكل عبدٍ أوَّاب أي رجَّاعٍ إلى الله ، حافظٍ لعهده وأمره **﴿من خشيَ الرحمنَ بالغيب وجاء بقلبٍ منيب﴾** أي خاف الرحمن فأطاعه دون أن يراه لقوة يقينه ، وجاء بقلبٍ تائب خاضع خاشع **﴿أدخلوها بسلامٍ ذلك يومُ الخُلُود﴾** أي يقال لهم : أدخلوا الجنة بسلامة من العذاب والهموم والأكدار ، ذلك هو يوم البقاء الذي لا انتهاء له أبداً ، لأنه لا موت في الجنة ولا فناء **﴿لهم ما يشاءون فيها﴾** أي لهم في الجنة من كل ما تشتهيه أنفسهم ، وتلذ به أعينهم **﴿ولدينا مزيدٌ﴾** أي وعندنا زيادة على ذلك الإنعام والإكرام ، وهو النظر إلى وجه الله الكريم[1] .. ثمَّ خوَّف تعالى كفار مكة بما حدث للمكذبين قبلهم فقال **﴿وكمْ أهْلكنا قبلهم منْ قرنٍ﴾** أي وأهلكنا قبل كفار قريش أمماً كثيرين من الكفار المجرمين **﴿هم أشدُّ منهم بطْشاً﴾** أي هم أقوى من كفار قريش قوة ، وأعظم منهم فتكاً وبطشاً **﴿فنقَّبوا في البلاد هل من محيص﴾** أي فساروا في البلاد ، وطوَّفوا فيها وجالوا في أقطارها ، فهل كان لهم من الموت مهرب ؟ وهل كان لهم من عذاب الله مخلص؟ **﴿إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلْبٌ أو ألْقى السَّمع وهو شهيدٌ﴾** أي إن فيما ذُكر من إهلاك القرى الظالمة ، لتذكرة وموعظة لمن كان له عقل يتدبر به ، أو أصغى إلى الموعظة وهو حاضر القلب ليتذكر ويعتبر **قال سفيان** : لا يكون حاضراً وقلبه غائب **وقال الضحاك** : العرب تقول : ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب[2] ، وعبَّر عن العقل بالقلب لأنه موضعه كما قال تعالى **﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور﴾ ﴿ولقدْ خلقنَا السَّموات والأرض وما بينهما في ستةِ أيَّامٍ وما مسَّنا منْ لُغُوب﴾** هذه الآية ردٌّ على اليهود حيث زعموا أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ، أوَّلُها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة وأنه تعب فاستراح يوم السبت واستلقى على ظهره فوق العرش ، فكذبهم الله تعالى[3] **والمعنى** والله خلق السموات السبع في ارتفاعها وعظمتها ، والأرض في كثافتها وسعتها ، وما بينهما من المخلوقات البديعة في ستة أيام ، وما مسَّنا من إعياء وتعب **﴿فاصبر على ما يقولون﴾** أي فاصبرْ يا محمد على ما يقوله اليهود وغيرهم من كفار قريش ، واهجرهم هجراً جميلاً **﴿وسبِّح بحمد ربِّك قبل طُلوع الشَّمس وقبلَ الغُروب﴾** أي ونزِّه ربك عما

(١) هذا القول مروي عن أنس وجابر بن عبد الله قالا : المزيد هو أن يتجلى الله تعالى لهم حتى يرونه وذلك في كل جمعة ، انظر روح المعاني ٢٦/ ١٩٠ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٧٨ . (٣) هذا قول قتادة والكلبي كذا في القرطبي ١٧/ ٢٤ .

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

لا يليق به ، وصلِّ له واعبدْه وقتي الفجر والعصر ، وخصَّهما بالذكر لزيادة فضلهما وشرفهما ﴿ومن الليل فسبِّحه وأدبار السُّجود﴾ أي ومن الليل فصلِّ للهِ تهجداً وأعقاب الصلوات المفروضة قال ابن كثير : كانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتان قبل طلوع الشمس ، وثنتان قبل الغروب ، وكان قيام الليل واجباً على النبيﷺ وعلى أُمته حولاً ثم نسخ في حق الأمة وجوبه ، ثم بعد ذلك نسخ كل ذلك ليلة الإسراء بخمس صلوات، وبقي منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب[١] ﴿واستمِعْ يومَ يُنادي المُنادِ منْ مكانٍ قريبٍ﴾ أي واستمع يا محمد النداء والصوت حين ينادي إسرافيل بالحشر من موضع قريب يصل صوته إلى الكل على السواء قال أبو السعود : وفيه تهويلٌ وتفظيع لشأن المخبر به ، والمنادي هو إسرافيل عليه السلام يقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء[٢] ﴿يومَ يسْمَعون الصَّيحة بالحقِّ﴾ أي يوم يسمعون صيحة البعث التي تأتي بالحقِّ ـ وهي النفخة الثانية في الصور ـ ﴿ذلكَ يومُ الخروج﴾ أي ذلك هو يوم الخروج من القبور ﴿إنَّا نحنُ نُحْيي ونُميتُ وإلينا المصيرُ﴾ أي نُحيي الخلائق ونميتُهم في الدنيا ، وإلينا رجوعهم للجزاء في الآخرة ، لا إلى غيرنا ﴿يومَ تشقَّقُ الأرضُ عنهم سِراعاً﴾ أي يوم تنشقُّ الأرضُ عنهم فيخرجون من القبور مسرعين إلى موقف الحساب استجابةً لنداء المنادي ﴿ذلك حشرٌ علينا يسيرٌ﴾ أي ذلك جمع وبعث سهلٌ هيِّنٌ علينا لا يحتاج إلى عناء ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ أي نحن أعلم بما يقول كفار قريش من إنكار البعث والسخرية والاستهزاء بك وبرسالتك ، وفيه تسلية للنبيﷺ وتهديدٌ لهم ﴿وما أنت عليهم بجبَّار﴾ أي وما أنت يا محمد بمسلَّط عليهم تجبرهم على الإسلام ، إنما بعثت مذكِّر ﴿فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ أي عظْ بهذا القرآن من يخاف وعيدي . . ختم السورة الكريمة بالتذكير بالقرآن كما افتتحها بالقسم بالقرآن ليتناسق البدء مع الختام .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإظهار في موطن الإضمار ﴿فقال الكافرون﴾ بدل فقالوا للتسجيل عليهم بالكفر .

٢ ـ الاستفهام الإنكاري لاستبعاد البعث ﴿أئذا متنا وكنا تراباً﴾ ؟

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٨ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٩٦ .

٣ ـ الإضراب عن السابق لبيان ما هو أفظع وأشنع من التعجب ﴿بل كذبوا بالحقّ﴾ وهو التكذيب بآيات الله وبرسوله المؤيد بالمعجزات .

٤ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿كذلك الخروج﴾ شبَّه إحياء الموتى بإخراج النبات من الأرض الميتة .

٥ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿ونحن أقربُ إليه من حبل الوريد﴾ مثَّل علمه تعالى بأحوال العبد ، وبخطرات النفس ، بحبل الوريد القريب من القلب ، وهو تمثيلٌ للقرب بطريق الاستعارة كقول العرب : هو مني مقعد القابلة ، وهو مني معقد الإزار .

٦ ـ الحذف بالإيجاز ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ أصله عن اليمين قعيدٌ ، وعن الشمال قعيد ، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه ، وبين اليمين والشمال طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٧ ـ الاستعارة التصريحية ﴿وجاءت سكرةُ الموت﴾ استعار لفظ السَّكرة للهول والشدة التي يلقاها المحتضر عند وفاته .

٨ ـ الجناس الناقص بين ﴿عنيد﴾ و﴿عتيد﴾ لتغاير حرفيْ النون والتاء .

٩ ـ الطباق بين ﴿نُحيي﴾ و﴿نُميت﴾ .

١٠ ـ توافق الفواصل والسجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿ذلك يوم الوعيد﴾ ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ ومثل ﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير . . ذلك حشر علينا يسير﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية ، لما فيه من جميل الوقع على السمع .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة قٓ »

* * *

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعَالِيْ السيّد حَسَن عَبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفًا لله تَعَالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفًا لله تعالى

يوزع مجانًا ولا يُباع

